

إبداعات جديدة

①

... وأشرقت عيناها

أسماء عبد الفتاح أبو العينين





رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

اسم الكتاب: وأشرق عينها
رقم الإيداع: ٢٠١٤ / ٩٠٤٩
تدمك: 3 - 7979 - 02 - 977 - 978
٢٠,٥ / ١٤,٢٥ سم
عدد الصفحات: ٧٦ صفحة
القاهرة: الطبعة: الأولى ٢٠١٤

لوحة الغلاف للفنان العالمى ديكاريكو

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

إهداء إليك يا وردتى البيضاء، يا حبي الغالى، يا أحلى لحظاتي
وسكناتي، يا من نظمت له الشعر ولم أكن شاعرة، يا من أحببتها حبا
لم أحبه لإنسان من قبل، يا أعظم هوى وأكبر حب، حب لن ينسيه أى
حب، إنه حبك أنت يا أمى. أمى التى لا أدرى هل هذا تكريم؟ أم اعتذار؟
أم مواساة لنفسى؟، فأنت لم تعودى إلى جوارى، لقد ذهبت بعيدا بعيدا
إلى عالم آخر، لا أعلم ولا أدرى إن كنت ستشعرين بهذا أو لن تشعرى،
إن كان سينفك أو لن ينفك، ولكن هكذا تسوقنى مشاعرى أن أهديك
وأكتب عنك، أن أتحدث عنك بعد أن كنت أتحدث إليك، أن أرسم اسمك
بكل الأركان، أن ألون به صفحة السماء، أن أعترف بجميلك، أن أقبل
حذاءك بعد أن قبلت قدمك، أن أقبل سريرك، أن أنام على وسادتك،
ليس لكونك أما فقط... بل لأنك كنت دوما... ومازلت... أعظم أم وإن
كنت اليوم بعيدة، لا تشاركينى حياتى كما كنت دوما، ولا تتنفسين
هوائى، ولا أستطيع أن أرى وجهك الأبيض المشرق... أشعر بك قريبة
جدا يا أمى... زينب إبراهيم.

أسماء عبد الفتاح أبو العينين

مقدمة

مع ضغط الظروف تختل أحيانا لدينا الموازين.
ومع قسوة الحياة نفقد أموراً عزيزة، تسرق منا الفرحة، الموت والظلم
وسرقة سنوات العمر ومع غدر الأحباب تزداد الحياة قسوة، قصص
شعري، ونحل جسدي، وضاعت سنوات العمر، وسعيت نحو من
لم يقبلني فتركني بعد أن تاهت مني نفسي.

شعرك القصير وعيناك الغائرتان

وبدأت تغير في شكلها وهيئتها ونظرت لأول مرة بعد سنين في المرأة لتتابع أثر الأحداث في وجهها، نظرت منكسرة، حزينة لنفسها مطأطئة الرأس صامتة ترقب ما فعلته الأيام، وظلت صامتة تنظر بتيه وحزن صامت قاتل، وظلت هكذا ساعات، كانت بالنسبة لها الأيام والساعات ليست ذات قيمة، فهي لم تعد تشعر بقيمة الوقت، حينما خرجت رأَت تغيرات عديدة حولها، أكثر مما لاحظته في شكلها، فأطفال الجيران أصبحوا كبارا: أناس ماتوا، وأطفال ولدوا، من الممكن أن تمر عليها ساعات تفكر في فكرة واحدة، فهي لم تعد تشعر بالوقت ولا تشعر بأى شىء حولها حتى دخلت أمها التي بدا عليها السن بضراوة والتي دخلت ببطء حتى اقتربت من ابنتها بعد أن أخذت من يدها المرأة وهي تربت على كتفها قائلة لا تفكرى بما أحدثه لك الماضى، وظلت تتكلم ولكنها لم تسمعها وظلت غارقة فى سحابات الصمت، وهي مطرقة برأسها كأنها تفكر بمسألة صعبة الحل كأنها ترى سنين العمر ودهر الأحران الذى أصاب كل طرف من أطرافها وكل جزء من روحها وتحول صوت أمها إلى صراخ، كأنها تحاول أن توقظ نائما كان قد مات، فاستيقظت على وجه أمها الذى بدا عليه علامات السن من أثر الهموم، فتهربت من قسوة ما عانت وما رأَت إلى النوم والعلاج ومرت الأيام والشهور وظلت كما هي، لم تتغير ظاهريا ولكنها تغيرت نفسيا

بعد النوم العميق وتشربها الحنان من كل من حولها، وبدأت بالعلاج من كثير من الأمراض العضوية البسيطة، ولكنها لم تفكر بالعلاج النفسى. وبعد شهور قضتها فى النوم والعلاج والاسترخاء، بدأت تستعيد قدرتها على الكلام والسير فبالرغم من أنها لم تخرج مشلولة أو خرساء فإنها خرجت وهى لا تطيق الحركة أو الكلام، وحينما تضع رأسها على الوسادة تشعر براحة لم تدركها منذ سنوات، وتستغرق فى النوم كأنها تشرب من بئر خمر يسكرها ولا يريحها وإن كان ينسيها، وبدأت تتلقى العناية والاهتمام من أسرتها والأطباء، وهى تتشرب كل ما يعطى لها وكأنها تروى أرضا عطشى منذ سنين، وبدأت تخرج من شرنقتها، وبدأت تقابل من يأتى لزيارتها، بعد أن كانت خائفة من أن تلتاقهم، كانت ترهب الأعباء، وكانت تعلم، أنهم يمثلون لها عبئا، وقدم العديدون، ولكنه لم يأت، لم يأت سامر رمزى خطيبها، الذى لم تره منذ سنين، ولم يتقدم لغيرها للخطبة، كان كتوما، هادئا، لم تشعر يوما بحبه لها، ولكنها كانت الفتاة المناسبة بكل المعايير، كانت اختيار والدته، لم يشعر تجاهها بانجذاب برغم انبهارها البين به، فقد كان الجار الذى حلمت أن تتزوجه منذ سنوات، ومع إنها كانت تنتظر قدومه ولم يأت، لم تنهار ولم يحزنها ذلك كثيرا؛ فقد اعتادت الخسارة. وإن كان قد سبب لها الأمر بعضا من الإحباط ونمى لديها الشعور بالخسارة ولكن لم يكن الأمر ليدمرها. فقد مر بها الكثير وأصبحت الآن قوية، وخرجت إلى الشرفة ونظرت إلى الشارع الذى نشأت فيه شارع هادئ من شوارع مصر

الجديدة ليس بالواسع بجفاء ولا الضيق الخانق، كان كالحلم الجميل، شارع يظلمه على جانبيه شجر الفيقس المربع الجميل، وهواه نسيم، وعمارته راقية بسيطة، ليست بالشاهقة ولا بالصغيرة كانت وسطا بكل شيء تلك الوسطية الهادئة بلا اشتعال، لا غنى فاحش ولا فقر مدقع، شارع يرمز لزمن بسيط في حبه ومتطلباته، به مدنية بلا قسوة شوارع مرصوفة بلا ضوضاء، استقرار، هدوء، رقة، صباحه الهادئ بشمسه المشرقة، إنها تشتاق لأركانها، لشجرتها ذات الورد الأصفر، لشجرة الورد البلدى الأحمر على طرف الشارع. تشربت البساطة تشربت منها الهدوء وعبير الصيف والشتاء الذى يأتى عبر حديقة وافرة بالزروع برغم صغرها حجما، بدأت تستمتع وهى ناظرة من الشرفة على شارعها، بدأت تستيقظ داخلها ذكرى راحة، متعة، عشق لهذا المكان الذى ترعرعت فيه، شوارع تمثل عصرا بدأت لمساته تشرف على الانتهاء، عصر يعتنى بالذوق أكثر من المادة، وكان سامر واحدا من هذا الكون الذى لم تشعر يوما بالغبرة أو الاختلاف فيه برغم جفائه معها، فكان مثلها ملتزما هادئا، محملا بثقافة غربية جعلت منه مشتتا داخلها ولكن ظاهره كان مثل شارع هادئ خيالى، ولعل هذا كان من الأسباب التى جرفت مشاعرها إليه، إحساسها بعدم الاختلاف، بالتلقائية، بالانتماء، كانت مشاعرها البريئة تنجرف إليه كسريان المياه إلى الأراضى دون تفرقة إن كانت خصبة أم قاحلة. ولكنها بدأت تفاجأ بأن الشارع لم يعد الشارع نفسه وطلبة مدارس المنطقة الذين كانوا يخرجون من العمارات المتقاربة

فى الوقت ذاته تشتتوا وعاش كل منهم بمكان مختلف، أصبحت ركنة السيارات صفيين، ازدحم الشارع، بدأت تظهر علامات غنى فاحش شوه معالمها، نكست عمارات رقيقة وبنى مكانها أبراج، سوبر ماركتات، وضوضاء، تغيرت الموضة وتغيرت الملابس والأذواق وتساءلت: هل ظل سامر كما هو؟

سارت بالشوارع حائرة تائهة، تلك الحيرة وذلك التيه اللذان يحطمان الإنسان، ومع هذا سارت بلهفة، سارت بلهفة المشتاق لرؤية المحب، تريد أن ترى كل المعالم، معالم الشوارع التى تغيرت فى سنوات قليلة بقسوة، مدن جديدة خالية بجفاء، تشتتت، ذعر، خوف، لم تعد القاهرة التى عشقتها وأحببتها، وقفنت على شاطئ النيل، وما أن رآته حتى ارتعشت كل أوصالها، شاعرة بحنين يجرفها إليه، إنه لم يختلف كثيرا، مازال حانيا، مازال معطاء، وأغلقت عينيها لتستنشق بعمق كل ما استطاعت من هوائه، ويرغم أنه رواها فإنه لم يرو ظمأها وتمنت أن تكون طائرا صغيرا يطير فى سماءه ويشم كل عبيره، وألقت عيناها الناظرتان أحزان سنوات وسنوات أرادت أن ترويهما للنهر، وبدأت تسير بالشوارع التى عرفتها بالأمس وتغربت عنها، ولم تشعر بالألفة، اكتسحت المولات محلات الملابس وأصبح الجميع يتلهف على سیتی ستارز وسنسبرى، وما بين كنتاكي وهارديز يوجد بيتزا هت، وأمور عديدة أقحمت فى الحياة، ومن أجل تخفيضات أو خدمات ترى مكانا واحدا يضم مستويات وأشخاصا متباينة، ويتطلع الكل إلى الكل، ويتطلع الجميع إلى الأضواء المبهرة، والموسيقى الصاخبة،

تشدك وتسعدك بالوهم للحظات، وتشعرك بالتيه واللهث طيلة حياتك،
وشرعت النفوس ولم يعد يشبعها الرضا.

ومع كل هذه الأمور القريبة واقعيًا والغريبة ضمنيًا، المبهجة
المتعسة، القريبة الغريبة، شعرت أن الكون وما فيه أصبح كائنا واحدا
وهي كائن آخر، أرادت أن تكون جزءًا من هذا الكون الذي رفضت أن
تتحداه كما كانت، بل تريد أن تمتزج بأجوائه، كقطرة وسط مائه،
أرادت ألا تكون مختلفة، أرادت أن تفرح، أن تستمتع بالدنيا التي
حرمت منها، أرادت أن تعيش بلا تعقيدات أرادت أن تفرح... أن
تجري... أن تعود كطفلة لا يعنيها سوى الحنان، اشتاقت للناس
وأرادت أن تعاملهم وأن يعاملوها، اشتاقت للهناء والعيش بلا أعباء،
أرادت أن تنسى، لقد تأملت لسنوات وكفهاها أما الآن. أرادت أن
تحب وأن تحب، أرادت أن تلقاه. سامر رمزي ذلك الفتى الذي
حلمت به لسنوات، ذلك الشاب الهادئ الرزين. إنها تتذكره.. تتذكر
هدوءه، تتذكر وسامته، كان لا يتحدث إليها كثيرا برغم كونه خطيبا،
لم تشعر يوما بلهفته عليها، كان هذا الأمر يحطمها قررت أن تحاول؛
أن يحبها، كانت تسمع كثيرا ممن حولها أنه إن لم يكن معجبا بها
فلم تقدم إليها؟! ولكنها كانت تعلم جيدا أنه إن كان هناك أحد يحب
الآخر فإنه هي، ومع هذا لم تحدثه في هذا الأمر؛ فقد كانت تخاف
أن تخسره، كانت تعلم أنها لا تعجبه كثيرا وأنها مجرد عروس
تنطبق عليها المواصفات، كانت حينما تجلس معه يشرد بعيدا، قررت
أن تحاول، أن يحبها، وأن تتغير لأجله، فأتى القدر للتغير كلية

لأجله، لحظات من العمر وتغير كل شيء، لم تستمر الخطبة طويلا، ابتعدت لخمس سنوات، أغمضت عينيها وتنفست الصعداء وكأنها تتذكر أشخاصا غرباء ولم تشعر بالألفة وأصبح كل ما يعينها أن تستمتع بهذه الدنيا وأن تعوض العمر الذى فات، إنها تريد أن تعوض كل شيء وأن تنسى كل شيء، وتخفت من الحقيقة ومن شعورها بالاختلاف، فقصدت شعرها وذهبت لتشتري بنطلون جينز تلجى بلون السحاب فى صفحة السماء، ولم ترتد بادی ضيق؛ فهى لا تريد جذب الأنظار، وتريد أن تتحرك ببساطة، واشترت بلوفر سكرى هادئا ناعما، وفردت قصتها الناعمة حول وجهها الذى أصبح أكثر رقة وألقت بنفسها وسط آلات الملاهى لتدور بها وتدور لترفعها لأعلى وتلقى بها، وهى تصرخ فى لحظة وتضحك فى لحظة وتبكي فى لحظات، وفى تلك اللحظات رأت شخصا يتطلع إليها من بعيد بجوار سيارة سوداء وينظر نحوها بشفقة فمسحت دموعها بخجل، وغادرت المكان وسارت بالشوارع والطرق، وركبت تاكسيا دار بها أرجاء المدينة، وظلت تفتح عينيها لتشبعهما بمدينتها الغالية، ولتنسيها الصور الملائمة أمام عينيها، حتى مرت أمام عينيها منطقة معينة، فسرت فى جسدها رعشة، وأغلقت عينيها بسرعة، حتى اختفت المنطقة فتنفست الصعداء، ونزلت من المواصلة وظلت تسير وتسير وحيدة حتى عادت لمنزلها حزينة، لا تفرح لما تتشربه من الحياة. وما إن ترجع لمنزلها حتى ترى والديها، ودون جهد تشعر بأسعد اللحظات وبالدفء والأمان، لا تنغصه سوى ما ترى فى وجهيهما من حزن.

ورأت سامر رمزي والتقت به فى نهار يوم بارد وكانت واقفة بالمحطة فنظر إليها من مسافة ليست قريبة على استحياء وأراد أن يقترب منها ولكنه ظل يرقبها من بعيد، شعرت أن أحدا ما ينظر إليها من هناك، وما أن لمحت وجهه حتى أشاحت بوجهها عنه وحركت بعصبية بعض خصلات شعرها المنسدلة على وجهها، ونبض قلبها بشدة وقسوة أظهرت ما بها من توتر وازدادت عنفا وجعلتها تقطر دمعة حارة هاربة منها، حتى نظرت أمامها بتوتر وركبت أول ما رأت دون أن تعرف وجهته، وظلت تراودها الأفكار هل كان مهتما بها؟ هل أراد أن يحدثها؟ وشعرت ببرودة شديدة تسرى بجسدها، أسقطت من عينيها دموعا كثيرة رغما عنها، ونظرت أمامها من الشباك، لتسلى نفسها وهى تفكر هل أخطأت أن غادرت بسرعة؟ ولكن لم؟، وهل أتى إليها من قبل وسألها؟، وفجأة توقف الأتوبيس حيث نهاية طريقه، فنزلت وما أن نزلت حتى لاحظت عربة سوداء فارهة توقفت بالقرب من الأتوبيس بالمحطة، ولكنها لم تهتم ولكنها لاحظت السيارة تتبعها، فتوقفت فى زعر، فتجاوزتها السيارة مبتعدة، فابتسمت براحة ساخرة من هواجسها، وظلت تسير لساعات وساعات تائهة، تعب وعاتت إلى منزلها بعد أن أنهكها التعب، إنها تريد أن تنام، لقد أنهكها الحزن والفرحة، كانت فى تلك الليلة متذبذبة وكأنها شقت إلى نصفين، نصف يحبه ويشتاق إليه، والآخر معاتبا يرفضه، وكلاهما يتنازعان، وخرجت إلى الشرفة الهادئة فى سكون الليل، كان الجو ككأس من الثلج المنعش البارد، كان الليل دامسا، ساكنا آمنا هادئا مستقرا،

والسماء زرقاء قاتمة والنجوم تتلألأ بها، كانت ليلة حانية، كل ما بها يسجد للرحمن، باتت ليلتها متأملة هادئة حزينة تسقط دموعها بصمت وبحرارة، وسعيدة لأنها تشعر بالارتياح بعد ألم سنين، إنها هنا في تلك الشرفة التي عشقتها، تعرف قيمتها الآن، وتتأمل السماء، بهذا الشارع الهادئ الرقيق بعماراته المتشابهة وبأشجاره التي على جانبيه، وبسكانه المحترمين، يا لها من لحظات، إنها تنعم بحضن والديها الذي لم تنعم به منذ سنين والتقت به أخيرا. واسترخت ليلتها بالشرفة تتطلع إلى السماء في دفء وراحة وهدوء. وفي اليوم التالي خرجت وهي تأمل أن تراه، كان الضباب شديدا، وكان الكون كفستان زفاف أبيض شفاف، وقفت بالمحطة وهي مرتعشة، منكمشة تحاول أن تلملم حرارة جسدها لتدفي هذا البرد القاسي القادم إليها، تلفتت حولها ولم تره ظلت هناك لساعات وساعات، أرادت أن تراه أن تبحث عنه، عن السعادة، عن الأمان، ومن لا يبحث عن الأمان؟! وما في هذا؟! فقد ضاعت منها أغلى سنوات، ولكنه لم يأت، ولم يكن هناك، أطرقت برأسها حزينة، شعرت أنها فقدت كل شيء، وكما في لحظات اليأس يولد الأمل، وبينما هي تنظر إلى الأرض سمعت صوتا بقربها قائلا: نهى؟ كان يبدو أن صاحب الصوت ليس متأكدا أنها هي، أما المستمعة فكانت متأكدة أنه هو... رفعت رأسها في مواجهته بهدوء قائلة سامر.

وما أن التقت عيناه بعينيها، حتى امتلأت عيناها بنظرة عتاب وحزن وظلت عيناها ساكنة كصاحبيتها، فبادرها بالسؤال: أهذه أنت؟، وظل يتأملها بإعجاب، وهي تتأمله باشتياق، واستطرد قائلا لقد

تغيرت، وصمت للحظة وسألها: شعرك القصير وعيناك الغائرتان؟، فى تلك اللحظة رأيت بعينيهِ بريقاً لم تكن لتراه من قبل؛ إن نظرتَه قد تغيرت كلية، إنها لأول مرة تراه مشدوداً لها منبهراً بها، إنها طالما حاولت جذب انتباهه، وطالما حاولت أن تغير من نفسها من أجله، فأتى القدر لتتغير كلية من أجله، وكأنها المرأة التى كان يبحث عنها منذ زمان، وكأنه كان حينما كان شارد الذهن كان يفكر بها. لقد رأى بصورتها البريئة لغزاً، فلم تكن تلك الفتاة التى كانت تسكن بالجوار تجذب انتباهه بأى شىء، أما تلك فإنها مختلفة، نظرة الحزن التى تخفى الكثير من الحكايات، وذلك الوجه البضاوى الرقيق، تلك النظرة الرقيقة الهادئة له، دارت الدنيا حولهما، وبدأت تسطع الشمس، وبدأ الضباب ينقشع، وسرح كل منهما فيما أهمه، هو فى عينيها العسليتين، وشعرها الناعم الذى انساب على وجهها، وهى بالذكريات، حينما كانا طفلين، حينما كانت تعود من المدرسة لتبحث عنه، حينما كانت تقف بالشرفة لساعات لعلها تراه من وراء الأشجار، إنها تتذكر اليوم الذى التفت بنظره أول مرة إليها بالشارع حينما كانت عائدة من المدرسة مع زميلاتِها، وكيف أنها ظلت تستعيد ذلك المشهد فى ذكرياتها لسنوات، واليوم استيقظ ذلك المشهد ثانية، وأفاق فجأة وابتسمت بتوتر وهى تنقل نظرها بعيداً كأنها تنتظر شيئاً بعيداً أكثر أهمية منه، ثم أعادت النظر نحوه قائلة: استأذن، قالتها وكأنها تقول له لقد تحدثنا أكثر مما يجب فأماء لها برأسه، ثم قالت وهى تهتم بالركوب معاتبية: سلم لى على طنط، كانت طنط سهير بالنسبة لها بمثابة أقرب

صديقة وجارة لوالدتها، ولعل ما قوى أواصر الصداقة تلك الخطوبة التي كانت بينهما، المثير في الأمر أن سامر لم يكن متحمسا للخطبة، ولكن ما دعاه لهذا كانت والدته، وما أن دخلت نهى السجن حتى اختفت والدته، وبعد فترة لم تعد حتى تلقي بالتحية على والدتها، حينها علمت والدة نهى أن هذا بمثابة فسخ للخطبة، ولكن ما آلمها أكثر قطع عروة الصداقة لسنين، كان هذا ما سمعته نهى من والدتها حينما عادت إلى المنزل وأخبرتها أنها التقت بابنها بالمحطة، فردت على أمها قائلة لعلها إن تحدثت معك بوضوح كان أفضل من هذا التجاهل المهين وخرجت إلى الشرفة ناظرة ببأس إلى ما وراء الأشجار، وتأخر سامر في القدوم لخطبتها، وما سمعته أن والدته تحارب بشدة ضدها، بعد أن كانت تحارب لأجلها، وتعجبت لهؤلاء الناس التي تخر أعناقهم للظروف، ويختلف تعاملهم مع الشخص وفق ظروفه، وعلى الرغم من أن اختيار سامر دوما كان يخالف اختيارات والدته، فإنه كان دوما يختار ما تختاره بانسجام غريب ما بين القبول والرفض. من الصعب أن يقال عن سامر أنه ابن أمه ولكن من السهل أن يقال إنه ابن مجتمعه، هذا المجتمع الأناني المتخاذل، الذي من الصعب أن يتخذ قرارات ولكن من السهل أن يتبرم! لم يكن لسامر الشجاعة التي تجعله يناقش ويدافع ولكنه جلس سارحا حزينا، ولعله كان يشعر نحو نهى بالحب ولعله كان مقتنعا بكلام والدته، ومع كل هذه التناقضات استيقظ سامر ذات يوم باكرا وبلا مقدمات طالب والدته بالتقدم لخطبتها، لم ترفض والدته ومع هذا لم يبذ منها القبول...

وتمت الخطبة ومرت الأيام السعيدة بسرعة كأنها سيمفونية رائعة تسمعها تحت شجرة وارفة على ضفاف نيل واسع ، بدأت تشعر أخيرا بحبه ، هذا الحب الحقيقي الذى لا تفرقه الأيام أو الحياة أو حتى الموت ، فى هذا اليوم صرح لها بحبه ، قال لها : لم أكن أتصور أنك جميلة هكذا من الداخل ، إنك رمز للجمال الروحى والمعنوى ، لا أعلم كيف لم أدرك هذا يا أجمل نساء الدنيا ، إن رقة مظهرك ما هى إلا رداء أبيض شفاف لروح بيضاء تشع حولها نورا قمرى فى ليل دامس ، وكانت تجيبه قائلة : إنك نهر من الفرحة وسط موج من العذاب . واستمرا بلقاءات متعددة ، ركع أمام عينيها ، صرح لها بحبه أكثر من مرة ، بدأت نظرتها تتغير للحياة بدأت تستمتع بإشراق الشمس ، بدأت تتأمل كل ما حولها ، بدأت تنظر بتفاؤل لكل الأمور ، بدأت تتحرك بسعادة لا تكف عن الضحك ، وكأن بركاننا كامنا من الخمول كونته الأحزان أتت الفرحة لتفجره فى ضحكات شقية ودموع حارة ، لدرجة أنها كانت تسير لساعات طوال لا تمل وكأنها تعوض ما فقدته من سعادة ولتعوض ما عانت من أحزان ، كأن لسان حالها يقول : أريد أن أنسى كل ما كان ، أن أنسى كل الوجوه ، كل المآسى ، أريد أن أعيش فقط كفتاة حاملة .

الغز

كانت نهى بالنسبة له لغزا ، ولعل هذا ما جعله مشدودا إليها ، الفتاة التى اختفت لفترة لا يعلم عنها أحد ، وغابت عن الجميع وعن العيون لسنوات ، وظهرت فجأة بعد سنوات بعد إشاعات عن تورطها سياسيا .

فى بادئ الأمر لم تكن تعنيه كثيرا لكن بعد ما رآها بالمحطة متغيرة المظهر والملامح لمس شيئا من الفضول فى نفسه، وبدأ يفكر بها وهو يعمل وهو يأكل وهو يشرب، وبدأ يخرج إلى الشرفة المطلة على شرفتها لكى يراها أو يرى النجوم ثم يتصل بها. إنه منبهر كلية بها، كانا حينما يخرجان معا يظل سارحا فى نظرتها البريئة المتطلعة بشوق كطفل فرحا ببلونة حمراء، وهو فى تلك اللحظات لم يكن ليتابع الأمور التى تجذبها من أضواء عالية، من أماكن جميلة من موسيقى صاحبة من ورد، من سماء مشرقة، من سواحل وشطآن، من ملابس ومولات، وإنما كان يتابع أمرا أكثر تشويقا، ابتسامتها، فرحتها المجنونة بأمر بسيط، بضحكتها بكائها، بسر عظيم كانت تخفيه وراء كل تلك الادعاءات، كانت كمجتمع محمل بأعباء لا يفكر إلا فى ضحكة ساذجة، أو أكل الآيس كريم، أو بالتأمل فى الطبيعة من مركب ذى شراع.

وذات يوم بينما كانا سويا فى عشاء بالخارج، وبينما كانت تتحدث بسعادة لم تختلقها بل أنتها راكعة فقاطعها وهو مطرق الرأس قائلا بصوت حان هادئ: ما هى القصة؟ فسألته: أى قصة؟ فأجابها بحزم: القصة التى سببت لك الحزن الآن بعد أن كنت تهربين منها بتلك الضحكات، ما الذى...؟ وقبل أن يكمل تتغير ملامحها إلى التوتر والحزن وتنظر إليه نظرة حازمة تأمره بالتوقف، وكأنه يدخلها رغما عنها إلى مغارة من مغارات الأحزان قائلة: أية قصة؟

– عندئذ نظر فى عينيها بحزم: أنت تعلمين؟

– ازداد توترها أمام إصراره وأخبرته: لا يوجد جديد، كما سمعت من كل الناس، قال لها: أريد أن أسمع منك، واستطرد مبدئياً تفهمه وهو ناظر إليها بحنان مشجع: منك ستكون مختلفة، ما الذى بداخلك؟ ما هذا الشيء الذى أحزنك كل هذا الحزن؟.

– قاطعته بحدة قائلة بانهايار وهى تغالب دموعها، بابتسامة ساخرة متعجبة من تحدته ببساطة وقالت وكل ملامح وجهها ترتعش: ماذا تريد أن تسمع؟ ماذا يعنى السجن؟ ماذا تعنى الوحدة؟ ماذا تعنى الإهانة؟ ماذا يعنى أن تظلم؟ ماذا يعنى أن تتغير حياتك فجأة؟ وأن تشعر بالغرابة عن كل شىء عن الناس عن الوجوه: أن تشعر أنك شىء والكون شىء آخر، أن تبتعد عنك، ورفعت إصبعها بعصبية نحو فمها الذى يتنهد بقسوة ماذا يعنى أن تساق بقوة وعنف بعيدا عن أحبابك لسنوات، وتحولت نظرتها من الحزن إلى العتاب الشديد لتركه لها فى الماضى فى أحلك الظروف مستدركة: عفوا... فإنك لم تكن هناك، ونزعت الكرسي من تحتها واقفة بحدة مغادرة بسرعة.

ظل جالسا مذهولا للحظة، ثم استدرك فجأة أن يلحق بها ولكنها كانت قد استقلت تاكسيا وغادرت.

لم تتوقف الدموع حتى وصلت حجرتها ووقفت أمام المرآة وبدأت تتطلع إلى ملامحها وتتحمس شعرها القصير، وبدأت تشعر بالهدوء، واستلقت على السرير منكشمة ونامت ليلتها وهى تمسح دموعها حتى غلبها النوم وهى ترتعش، والمصباح مضى.

دنيا

دنيا سامر أقبلت عليها أم أشرفت على الانتهاء. أيام نحياها بخيرها وشرها ونغادر ونتركها، الفرحة لا تكتمل والمتع تنقضى. هل تعلقت نهى بدنيا أم تعلقت بسامر أم أن سامرا دنيا ما كان لها أن تتعلق بها، وأشرق الشمس فتنهدت بارتياح، ونظرت إلى النافذة ذات الزجاج الشفاف ناظرة إلى الضوء الذهبى المشرق والذى برق مع عينيها العسليتين، وتذكرت حديثها معه، ونظرته الرقيقة لها فابتسمت ابتسامة هادئة، فرغم خوفها فلقد ارتاحت بعد أن تحدثت إليه عما آلمها، وأمسكت تليفونها فرأت اتصالات عديدة منه، إنها لم تتوقع أن يأتي اليوم الذى تتحدث معه بتلك الحرية دون خوف من أن يتركها، بل إنه يسأل عنها بجنون، إنه حقا يحبها، قامت بسعادة، وجهزت الإفطار وسقت الورد بالشرفة، ووقف بالشرفة المواجهة لها مطرق الرأس وعيناه متعلقة بها وهو يداعبها بابتسامة رقيقة تعتذر وكأن لسان حال صاحبها يقول لا يعنينى سواك، وسألها أن تقابله فأمات له برضا بالموافقة، وعلى شاطئ النهر قالت له: لعل ما مضى - برغم قسوته - إلا إنه أعطانى حبا الآن، لقد كنت أحلم أن تنظر إلى تلك النظرة، أن تحبنى هذا الحب، أن تكون مشاعرك مشدودة إلى، وتحركت برشاقة على شاطئ النيل، وبجوار الأشجار فاتحة ذراعيها لهواء النيل وكأنها تحيى بها روحا كانت قد شاخت، قائلة: إن الدنيا جميلة... جميلة، وصمتت لحظة وهى تتأمله بعينين دامعتين: بك الدنيا أصبحت جميلة، وتنهدت بارتياح بعد أن أزاحت هموما ثقيلة، لقد نسيت الآن كل

ما فات، وقالت وهي تلتفت: لقد كنت علاجي وتوقفت وهي تنظر نحو سيارة وقفت على الجانب الآخر، فتعجب سامر وسألها: ماذا هناك؟ فقالت له أعتقد أنني قد رأيت هذه السيارة من قبل وما أن أنتبه إليها حتى تغادر، فابتسم قائلاً: إنها لم تغادر هذه المرة لأنني بجوارك ونظر إليها بحب وإشفاق: لا أدري ما الذى أقدمه لك لتنسى كل الأحران؟ ابتسمت بهدوء يكفيني أنك بجوارى، وفى تلك اللحظة فُتحت نافذة السيارة ونظر من بها إليهما بتأمل حزين. وظل يتابعهما بعينيه حتى اختفيا عن ناظره، وسارا معاً عائدين إلى المنزل، ودعته ليتناول معهم الفطور، فقال لها لقد فطرت باكراً، فقالت له، إذا سأفطر أنا متأخرة، ودخلت متفائلة، فنظر إليها والداها بتعجب، كانت بالأمس حزيننة واليوم سعيدة، وبدأت تتناول بشهية، حتى سمعت التليفون الذى جرت نحوه، فقال والداها بقلق: إننى قلق بشأنها فأجابته أمها: إنها سعيدة ألا ترى كيف تطير من الفرحة كالفراشة؟ فرد عليها: الفرحة أحياناً تقتل كالحزن تماماً، إذا أبعدتنا عن طريق الله، خرجت من حجرتها وتوضأت وصلت الصبح، فجلس بجوارها والداها على سجادة الصلاة مبتسما لها بحنان: ليتك صليت قبل شروق الشمس، وربت على رأسها بحنان: لقد جعل الله عز وجل لكل شيء ميقات، الميلاد بميقات، والموت بميقات، ونظر إليها متفهماً: والحب أيضاً بميقات، لا تستعجلي أمراً أجله الله عز وجل، ولا تؤخرى أمراً قد آن أوانه، حينها نظرت إليه بسعادة إنها تحتاج لهذا الحنان، إنه يكفيها عن كل هذه الدنيا.

إنه شعور عجيب من الأمان والحنان يكفيك عن كل المعاناة بتلك الدنيا، ووقف قائلاً معاتباً لها برقة: صلاة الفجر أيضاً ميقاتها قبل الشروق، نظرت له مبتسمة بإحراج: سأصلى الضحى الآن، فرد ضاحكا وهو يشير إليها: إنك منافقة، تريدان أن ترضيني وليس ربك، فردت قائلة أليس رضا الأب من رضا الرب؟ فأجابها وهو مازال محتفظاً بابتسامته قبل أن يغادر: نعم وليس العكس. تأملت كلام والدها وفهمت ماذا أراد أن يقول، وسألت نفسها من تريد أن ترضى؟ تتلون وتتغير لترضى من؟ لماذا تريد أن تعود كطفلة؟ لماذا تريد الهروب من المسؤوليات؟ وفكرت لأول مرة، لماذا لا تتزوج هي وسامر؟ ماذا ينتظران؟ هل تلك الساعات التي يقضيانها سوياً هل هي حق أم يسرقان أمراً؟ إنه لم يلمس يدها، ولكنها تعلقت به بشدة، إنها سعيدة وهي بجواره ولكن ماذا سيضير لو تزوجا، هل يتعرفان على بعضهما؟ إنهما مخطوبان منذ شهرين وتعرفه من الطفولة، إنها ترتدى ملابس لا ترضى ربهما ولكنها ترضيه وترضى المجتمع، إنها تريد أن تكون جزءاً من هذا الكون حولها، لا إنها تريد أن تكون كما يحب أن تكون، وما أن سمعت رنة التليفون حتى انتفضت واقفة تاركة السجادة. مرت الأيام ولم يحدثها سامر عن اتمام الزواج، ولكن والدها تحدث إليه، قائلاً له أريد أن أفرح بكما وأرتاح، وكأنه أراد أن يهديها السعادة قبل أن يغادر... وغادر والدها... غادر دنياها التي انتظرتها منذ سنوات...

وارتدت الحجاب بالعزاء، وتردد على أذنيها السؤال نفسه: من تحب أن ترضى؟ وأنت لحظة دخول والدها النعش وعلا صوت

الصراخ، ولكنها لم تصرخ، لعلها صرخت لأمر لا تستحق من قبل، ولكن الأمر اليوم مختلف، إنه أكبر من الصراخ أكبر من البكاء، إنه لأمر عجيب، فمن من البشر تخيل أنه يوماً سيدخل نعشا، وهو يعلم أن آخرته بنعش يغلق عليه، ويترك منزله ويغادر دنياه ولا يدري إلى أين سيذهب إلى الجنة أم إلى النار؟ وسألت نفسها كيف تعصى ربها وهي تعلم أن غدا ليس ملكها، ومن حولها من سيقرون أين ستدفن وما هو كفنها، وسيحملونها ويتركونها وحدها وحيدة، ولن تعود إلى منزلها أو ترتدى ملابسها، أو تأكل طعامها! فجأة الحياة تنقضى، وتخلع عباءة الأحلام والآلام، الأشغال والخصومات الكبيرة والصغيرة ويترك وحيدا، مهما كان عظيما، سيترك يوماً وحده.

أتبعت الجنازة بقول الله أكبر، ذهبت إلى الجامع لتصلى عليه، وكانت هذه اللحظة المريحة بهذا اليوم الأليم، إنه بين يدي الله أرحم الراحمين، وهذا القبر ليس به إلا الجسد أما الروح تصعد إلى ربها ليعذبها أو يدخلها الجنة، إن والدها كان رجلا مؤمنا؛ إنها لا تخاف عليه، وعادت إلى المنزل وخلعت الحجاب ونظرت إلى وجهها وشعرها بالمرآة، وتساءلت من تشبهه ومن أرادت أن تشبهه؟ ما الذى حدث؟ ما الذى غيرها؟ إنه الموت الذى لم تره من قبل، إنه لأمر عجيب إنها حسابات جديدة، إن إرضاء سامر لم يعد من أولوياتها، إن هناك أمرا هم، إنه إرضاء الله.

❖ وسألت نفسها لماذا لا ترتدى الحجاب؟ أأختار الله ورسوله أم أتقلب مع تقلبات وأهواء المجتمع؟ أم أتقلب وفق أهواء سامر؟

رضا الله

وبدأت ترفع الحجاب عن رأسها وتخفضه بيديها المرتعشتين وهي تنظر بالمرآة وهي مرهقة دامعة العينين ومسحت بيدها بقايا دموع، وتركت المرآة وجلست لتفكر بهذا الشعور الذى انتابها لأول مرة، شعرت بأن هناك شيئاً مهماً ينقصها، ومهما أخذت المزيد من الدنيا ترغب بالمزيد، وكلما أخذت المزيد تشعر بالنقص، وقالت لنفسها: إنه البحث عن الدنيا، دوما تهيك الحزن، فلماذا انتحرت من خضعت لهم الدنيا وعشقهم الملايين؟، أين من كانوا يضحكون بالأمس؟ أين متعة الحياة من لحظة واحدة، لحظة خروج الروح؟ ولحظة السؤال من الملائكة؟ لماذا يبكي الناس حينما يتذكرون صباهم؟ أليس لأنها كانت لحظات وانتهت؟ ولماذا يكون الإنسان سعيداً بلا جنون حينما يصلى أو يقرأ القرآن، ولا يندم أو يتحسر حينما يتذكر تلك اللحظات، وحينما يخشع باكياً بالعبادة يبكى بلا اكتئاب وتلمس النفس راحة لا يدركها إلا من تذوقها، ويمتلئ وجهه فرحة ونورا... لماذا يهرب كل المكتئبين من علاجهم؟!.. لماذا يغرقون فى سبب اكتئابهم... دنياهم!؟

الصراع

وفجأة ظهرت أمامها فتاة أخرى بالمرآة، ليست هى ولكنها تعرفها جيداً، إنها فتاة قتيلة ملقاة بغياية الطرقات بالليل الدامس، وما أن رأتها حتى هربت من المرآة وهربت من الحقيقة وخرجت تسير هائمة

لا تقصد مكانا أو أرضا، وظلت تتأمل ما حولها ولأول مرة تشعر بشيء ما بنفسها... إنه صراع.

بدأت تشعر أن ملابسها تخنقها، وتذبذبت فلم تعد تعرف ما تريد؟ إنها تحب أن تبدو منطلقة تحب الحياة وتحب أن ترضى ربها، ولكن من أورثنا فكرة أن الحيوية والانطلاق تأتي من هذا المظهر أو الأناقة تأتي من تلك الهيئة؟ هل هي كتابات أم صور وأفلام علمانية ترفض الدين تشربناها واستقيناها أكثر من قرآننا وسنتنا دون أن نشعر، فأصبح النموذج الغربى هو المفضل فى الشكل والجوهر، فأصبحنا مذبذبين لا ندرى أننتمى إلى هؤلاء أم إلى هؤلاء؟، نتحرج من أفكارنا وخلقتنا وننبهر بالانحلال، وإذا ما انبهر الآخر بما لدينا من تحشم وطهارة تعجبنا، وإذا ما انتقصنا أصاب الشك أنفسنا!

متى نتخلص من التبعية؟ متى يتخلص العالم من اتباع بيت أو عدد من بيوت الأزياء بحجة أنهم يفهمون أكثر؟ اليوم شعر قصير وملبس طويل وغدا ملابس طويل وكم قصير لدرجة أن الأمر وصل إلى حالة من الهوس فتجد أحيانا شكل العرض مثيرا للشفقة والضحك أكثر من أن يكون مبهرا، وكأن مصممه مجنون لديه هوس بالعرى، إمكانيات هائلة وعارضات استغلن ما وهبهن الله من جمال فى معصيته كل هذا لترويج فكرة خاطئة منذ ميلادها، ولو استغلت تلك المواهب والإمكانيات لصنع ملابس محتشمة لأعطت نفس الانبهار دون المساس بالطهارة والعفة، وهل يجب أن تتعرى المرأة أمام كل الرجال، من أجل رجل واحد؟ لكن لا يجب أن ننقد تلك الأمور حتى لا ننتهم بالتخلف، وعدم قبول الآخر

أما إذا انعكس الأمر أى إذا تم نقد ما لدينا من طهارة وعفة اعتُبرت حرية رأى.

* وانفض العزاء وغادر آخر المجاملين مع وداع والدها، وأصبحت اليوم أكثر ضعفا وابتعدت البقية الباقية، وتحدثوا فى وجهها بما كانوا يقولونه من ورائها، وعلمت للمرة الأولى أن ما أخفته عن الجميع... يعلمه الجميع.

فقد كانت تسمع الحوارات عن المعتقل وعن التهمة وهى جالسة بالعزاء، وما أن أتى سامر حتى رفعت رأسها ناظرة متأملة إياه، سائلة نفسها هل يعلم؟

..وانفض العزاء

وانفض العزاء وعرض سامر خدماته بصورة مستعجلة وشكرته والدتها وغادر، ولم تكن المرة الأولى التى يتعجل فيها سامر الذهاب فقد تكرر هذا الأمر فى مرض والدها الذى لم يأت إليه سوى مرتين متباعدتين، لعله كان يتهرب من التزامه تجاه والدها، لعله كان يتخفى من التزامه تجاه رجل يموت!

إنها تتذكر والدها وهو يغالب نفسه فى مرضه طالبا منه أن يعجل بالزواج قبل وفاته، وحينما أخذ يماطل خرجت من الحجرة وخرج سامر وراءها ولكنه ما أن اقترب منها حتى ابتعدت ودخلت حجرة والدها وجلست بجواره وبعدها فتح سامر الباب فتحة صغيرة ناظرا إليها نظرة مودع وهى تنظر إليه نظرة قلق. وكانت تلك المرة الأولى التى شعرت فيها

بتخاذله، ومرت بعدها أيام قليلة وتوفى والدها، ولكنه منذ ذلك اليوم وهو يتهرب من عينيها مرة أخرى.

الحجرة الفارغة

ودخلت حجرة والدها مرة أخرى ولكنه تلك المرة لم يكن بها، وتخاذل سامر بوضوح تلك المرة، وفتحت الضوء بيدها المرتعشة الخائفة، وشعرت بشعور تعرفه جيدا، إنه البرد، إنه الخوف، إنه الوحدة، إنه الحزن، إنه الشعور بالشوق لوجوه تريد أن تراها، ولكنها لن تراها. وتذكرت الزنزانة السوداء، وشعرت بها تطوقها، إن الشوق كاد يقتلها، لقد كانت تشتاق إلى الجميع بعنف، عاشت سنينا وحيدة لا تعرف الكثير عن أسرتها... كانت ترتعد خوفا ألا ترى أحدا منهم ثانية.. وجه أبيها الذى أصابته السنين بالضعف... نظرة أمها الحزينة، عاشت سنوات وسنوات فى قلق وحرمان، خسرت كثيرا، خسرت أعواما عديدة من شبابها القصير.

اعتادت الوحدة... تعلمت الصبر... قتلها الحزن... تذكرت تلك الوحشة، خافت منها، انكشيت بأحد الأركان ترتعش، أمسكت ذراعيها، أغلقت عينيها، لتهرب من الحقيقة ولكن لا سبيل إلى الهرب تلك المرة، فالحقيقة حاصرتها فرأت وهم الحب الذى تعلقته به، رأت زيف الغطاء الشفاف الذى تغطت به، ورأت الموت... رأت الموت ورأت الحقيقة التى تذوب فى لحظتها كل لحظات الوهم، إنها اللحظة التى يفترق فيها الجميع، بأمر إلهى إنها لحظة خروج الروح من الجسد،

إنه أمر يعجز أمامه كل البشر، إنها اللحظة التي يواجه فيها الإنسان أعماله ويمر فيها مسلسل العمر في لحظة والتي يندم فيها عن كل لحظة هرب فيها من دينه وبعد فيها عن ربه وها هو ذا الآن يذهب إلى الله عز وجل وحيدا بالنهاية، إنه الامتحان الأعظم، الذي يصبح أمامه كل البشر صغارا، حينها سألت نفسها ما الذي نضيع فيه عمرنا؟ متع لحظية وأهواء، لماذا ارتبطت حياتها هذا الارتباط المرضى بسامر؟، إن حياتها بدونها خاوية حزينة، إنها تريد أن تهرب من أحزانها، إن موت والدها وما مرت به يخنقها، إن سامرا بالنسبة لها كالدنيا بالنسبة للبشر، يتلهون بها عن الحقيقة، ويحلمون بها وما حلمهم إلا سراب. كانت حينما يشدد بها الاكتئاب والوهن بالزنزانة تتذكره، واليوم أيضا تتذكره، كانت دوما ما تتلهى بوهم حب سامر عن حقيقة وحدتها، كما يتلهى الإنسان بالدنيا لينسى حقيقة الموت.

خوف وهروب (حقيقة.... وموت)

وأطبق الحزن على صدرها فهربت من حجرة والدها وهربت من الحقيقة، إنها لا تريد أن تدخلها، إنها تخشى هذا الألم.. ألم الحقيقة، ألم الفقد، ألم الخسارة، يجب أن تهرب من كل تلك الحقائق القاسية من الموت، ومن المعتقل، ومن تخاذل سامر.

وخرجت إلى الشرفة فرأت السيارة السوداء بأحد الأركان بجوار منزلها، وشعرت بأمر ما لم تفهمه، وظل راكب السيارة يتطلع إليها من ركنه المظلم، ودخلت بهدوء وفتحت إيميلها وأخذت تقلب في رسائل

قديمة أتتها من راسل مجهول كأنه يعرفها وأخذت تنتقل بين أكثر من نافذة، لترى صاحب السيارة السوداء ولكنها لم تره وسألت نفسها وهي تنظر بحيرة فى تلك الليلة هل من الممكن أن يكون هذا الشخص الذى يتبعها هو كاتب الرسائل؟ وظلت السيارة واقفة حتى دخلت نهى، وأغلقت الستارة، فسمعت السيارة تغادر ففتحت الستارة وراقبتها وهي تغادر. ودخلت عليها والدتها فلاحظت الحيرة على وجه ابنتها فسألتهما ماذا هناك فقالت لها: تأتينى رسائل عديدة من شخص كأنه يعرفنى، وهناك سيارة أراها دوما واقفة هناك.

فقالت لها والدتها: أمر عجيب ولكن لا تهتمى.
فتمتت نهى: لا أدرى لم أهتم لعلى أحتاج لهذا الظل تحت الشجرة هناك.

وأتى سامر وسألته: أين كنت تلك الفترة؟ فأجابها: لقد كنت منشغلا بالفترة الماضية، وبدأ يتحدث عن مشغوليته وأعماله، وهي تتطلع إليه ببرود، قائلة ألا تشعر بما مررت به بالأيام الماضية؟ فرد عليها: إنك لا تعلمين كيف هى مشاكل العمل وأخذ يدور فى محور حياته، وبدأ بروده ينتقل إليها فظلت صامتة لا تجيب عليه حتى قالت له: ما الذى جعلك مشدودا إلى؟ فقال لها: مظهرك الطفولى. فقالت له بحدة إننى لست طفلة بريئة، إننى شابة تعذبت كثيرا هل تحكم على الأمور من المظهر دوما؟ فقال لها: لماذا أنت متضايقة إلى هذا الحد؟ فأجابته: لا شىء. وانتهى اللقاء، ومرت الأيام، ولم يتصل، كانت تجرى على التليفون لتحدثه ثم تتراجع، ظلت تتأمل الحياة القصيرة لكل منا،

ظلت أياما تنتظره ولكنه لم يأت، أمسكت التليفون كثيرا منتظرة اتصاله، حتى فقدت الأمل، تمكث بالساعات الطوال تنظر إلى نمرة إلى رسائله ويدها تريد أن تخونها وتتصل، ولكن سرعان ما تلقيه بعيدا بنوبة من نوبات البكاء، كانت تجلس بالساعات تبكى بشدة شاعرة بالخواء قائلة: لماذا تتركنى دوما وحيدة؟ لماذا تتركنى الآن وحيدة؟ لماذا لا تشعر بي؟ لماذا تبتعد فى أقسى اللحظات؟ يا لك من قاس، انتظرته أياما وأياما ولكنه لم يأت، كانت تلك الفترة من أقسى لحظات العمر، كانت تقضى أوقاتا طويلة دون عمل شىء، ولا تستطيع أن تعمل، الحياة قصيرة وقد ملتها اليوم، لا جديد، الأيام تشبه بعضها، إنها تشعر بالاختناق، قامت وفتحت النافذة لتستنشق بعض الهواء، لكن وإن استنشقت كل الهواء فلن يكفيها، وأسقطت دمة حارقة وهى تقول لنفسها لقد انتهى....

* أيهما أقسى؟ الفراق الأول أم الفراق الثانى؟ الإهمال منذ البداية؟ أم الإهمال بعد الاهتمام؟

النهاية

وفتحت ببطة الدرج، وأخرجت منه علبة الخاتم بهدوء وخلعت الخاتم ونظرت له نظرة مودعة ووضعت به بسكون الحسرة وفتحت باب المنزل، وتوجهت لمزلهم المقابل وضغطت الجرس وتنفست الصعداء، وفتحت الباب والدته التى تفاجأت لحضورها ونظرت إليها نهى بصمت المواجهة وتعلق نظر كل منهما بالأخرى، وكان اللقاء الأول بينهما منذ أن خرجت نهى من المعتقل، كانت نظرتها تحمل قوة وغضبا وحزنا

وتحديداً، وأدخلت يدها بالحقيبة وهي تلملم ما تبقى لها من كرامة وأخرجت العلبة وسلمتها إياها وهي ترفعها إليها، ناظرة لها بعزة وكأنها تسلمها بغيتها وتقول لها ببدي لا بيد عمرو، وأطرقت الأخيرة رأسها بالأرض ودون أن تنبس بكلمة غادرتها نهى، كما غادرت حياتهما.

ونزلت السلالم مسرعة وهي تقهقه ببكاء تحاول أن يكون مكتوماً، وتماسكت على مشارف باب العمارة والذي ما أن خرجت منه مخلفة قلبها الدامى وراءها والتي لم تشعر به حتى أغلقت باب شقتها بقسوة وراءها، وعندئذ علا بكاؤها قوة ساقبها فوقعت على الأرض من أثر البكاء.

وعاد سامر فتلقى الخاتم ببرود، لم يحزن، وخرج إلى الشرفة، ينظر نحو منزلها بصمت.

وانتظرت أياماً منه ليرد ولكنه لم يتصل، أو يتحدث إليها، وتركها مهملاً لها، وأنت الظروف لتحارب ما تبقى من حب إن تبقى حب!، ولتدهس نهى تحت أقدامها!، وبعد أيام وأيام كانت تستيقظ فيها على صوت صراخها، وتبكي مع كل صباح وكانت تجلس متحسرة لساعات، أتاها استدعاء من الأمن، والذي يجب أن تنزل بناء عليه في وقته لإجراء التحقيق، في حادثة إرهابية، ومع صراخ والدتها، وفي منتصف الليل أخذت للتحقيق.

الطيب

وبأمن الدولة دخلت خائفة، لا تعلم لم التحقيق، أو لم هي هناك، جلست لساعات حتى أعيها النوم، وبعدها تم طلبها للتحقيق، ودخلت وكان التحقيق حاداً وكانت ناقمة، كارهة، تتمنى الانتقام، تتمنى أن

تصرخ بوجوههم، وأن تقوم هي بالتحقيق معهم، ولكن السلطة جعلت الجاني محققا، والمجنى عليه متهما، وفجأة أتى تليفون، انفل بناء عليه المحقق، وقام على إثره إلى باب الحجرة لاستقبال أحد ما رفض الدخول فالتفتت تتطلع إلى هذا القادم الذى اقتحم التحقيق معها، لم تكن الرؤية واضحة، فكان الباب شبه مغلق، ولكنها لاحظت هيئة هذا القادم وما يرتديه، كان يرتدى بذلة زرقاء، كان طويلا وعريض المنكبين، أما وجهه فلم تراه، وبعد دقائق دخل المحقق وأوقف التحقيق وقال لها بلهجة محترمة تستطيعين الانصراف، يبدو أنك تهمين أشخاصا مهمين، فسألته بتعجب: خلاص؟!

فأمسك ورقة التحقيق وهو يقطعها بضيق: خلاص. واستطرد وهو يشير لها بالرحيل قائلا: مع السلامة.

وغادرت المكتب مندهشة، سعيدة، وتنفست الصعداء وكالعصفور الذى فك أسره من لحظات سارت بسرعة، وهى تفكر من هذا الذى أنقذها من هذا الجحيم، ولماذا؟ ولماذا لم يعاونها من قبل ويعاونها الآن؟ وهى تسير بالمر تذكرت ممرا كانت تقف فى بدايته وشبح فتاة تسير بآخره، وبينما كانت تسير مر طيف صاحب البذلة الزرقاء من مكتب الجوار فلم تلتق أن تراه، فمر من أمامها فى لحظات وأصبح يسير خلفها وهى تسير بالاتجاه المعاكس خلفه، ولم تفكر كثيرا قبل أن تلتفت لكى ترى هذا الخيال أو الشبح الذى مر أمامها ولكنه لم يلتفت واختفى عن ناظريها. وفى تلك اللحظة تذكرت طيفا آخر مع فتح زنزانة صغيرة الحجم مظلمة بالجبل وهى نائمة مريضة على

أرض صلبة، ودخل ومعه بصيص ضوء وهو يقول لها بعطف: اصمدى يا نهى، قريبا ستنتهي معاناتك، وغادر، وغادر معه بصيص الضوء الذى دخل معه وأغلقت الزنزانة.

وعادت إلى شارعها فرأت سامرا فنظرت نحوه ولكنه لم ينظر إليها ومر من أمامها وكأنه لم يرها، فتجمدت عيناها وظلت تهوى بالدموع دون أن تشعر بأى شىء حولها، ولفها جليد الصدمة، فتجمدت مكانها لدقائق، وسرعان ما أمسكت ذراعيها وتحاملت على نفسها حتى صعدت إلى منزلها الذى عمت به الفرحة ما أن دخلته، ولكنها لم تشعر بشىء حتى وصلت إلى باب الشرفة فأخذت تغلقه بشدة.

العقد الخانق

انكمشت بسريرها، أحاطت بها الأحزان كعقد خانق التفت حول عنقها وعصف بها تلك المرة، ولأول مرة بعد خروجها من المعتقل تتذكر ما حدث بالمعتقل، وبدأت تكتمل الصورة لديها، وشعرت بكل ما مضى الآن، تذكرت ما نست: شعرت بالعجز، شعرت بالحسرة على كل ما مضى، لم تحتمل الألم أمسكت برأسها أرادت أن تنتزع منها كل الصور.

خرجت، سارت وسارت وسألت نفسها لماذا الآن؟ اختنقت من الماضى القريب الذى ظنته بعيدا... ما هذا الوهم الذى أنساها كل تلك الأمور؟!.. ما هذا الوهم الذى أنساها نفسها؟!.. إنه لعنة وليس حبا. وأخذت تحدث نفسها لماذا سامر؟ لماذا؟، لقد ألقيت معك كل الأحزان

ونسيت الأعباء ولم أكن وحيدة وكنت قوية ، كنت مصدر قوتي بالأمس ،
ومصدر ضعفى اليوم ، معك كانت الأعباء أحلام ، والآن تذكرك هو أفسى
الأعباء ، حبك بالأمس جنة واليوم نار .

وعادت إلى المنزل بعد أن أنهكها التعب ، وعادت ولم تنم وقضت
ليلتها مبهوتة ما بين الصمت القاتل والدموع التى تذرفها عيناها رغما
عنها ، وعند سماع أذان الفجر قامت بتكاسل لتصلى فقد كانت منهكة
تماما ، وصلت مع والدتها جماعة ، وفى دعاء القنوت دعت والدتها
بحماس يارب اصلح حال ابنتى نهى واكرمها يارب ، وشعرت بعد
الصلاة بقوة عجيبة بالنفس والجسد ، لقد كانت بين يدي الله ، إنه أمر
لا يستطيع المرء وصفه ، أنت مع خالقك الذى خلقك فسواك فعدلك ،
إنه قرب يعطى النفس قوة خالصة ، لماذا بعدت عن تلك الروح وتلك
القوة فى تخبطها بالدنيا . إنها تكلم الله عز وجل والله جل جلاله
يكلمها ، إنها حلاوة لا يشعر بها إلا من اقترب من الله بإخلاص ولو
للحظات ، إنها متعة أفضل من أى متعة وحب يعلو أى حب ، إنه حب
يمنح قوة لا ضعفا .

وما أن أشرقت الشمس حتى دخلت للنوم مع والدتها بعد حوار
هادئ كالنسيم الرطب فى يوم حار فنامت فى سكينه وهدهوء بجوار
والدتها صاحبة الوجه الهادئ الحانى ، واستيقظت بعد الظهر وتناولت
القطور مع والدتها التى قالت لها : اخرجى ابحتى عن مستقبلك ،
فردت عليها : إلى أين سأذهب؟ فأجابتها : اخرجى اعملى أى حاجة ،
قالت لها فوقى بقى لنفسك ودورى على مستقبلك ، بلاش الانهزامية

اللى أنت فيها دى ، فخرجت هائمة على وجهها حتى وجدت نفسها زاهبة إلى منطقة معينة، تعلمها جيدا، والتي أغمضت عينيها حين رأتها من قبل، وذهبت إلى جمعية تعلمها جيدا، وسألت عنها فعملت أن غلقها كان وراءه فتاة فضحت أعمال الشركة الأجنبية المطبوعة مع إسرائيل والتي تقوم باتخاذ ستار تقديم العون للمناطق العشوائية لتستغلها أسوأ استغلال، وبأنها ممولة من الخارج مستترة تحت شعارات إنسانية وقيامها بأمور عدة تخل بأمن البلاد كإشاعة الفوضى من خلال تجنيد بعض البلطجية وإثارة الفتن، وعلاقتها المشبوهة بإسرائيل وقيامها بتعقيم النساء، وخطف للأطفال، وتجارة الأعضاء، عندئذ تساقطت دموعها رغما عنها، ولأول مرة شعرت أن الأمر يستحق العناء وتذوقت أخيرا طعم النجاح وإن لم يشعر به أحد، لقد نصرها الله بحرب كانت بها ملثمة، وخرجت فرحة ضاحكة تطير بالشوارع، وشعرت أخيرا أن ما ضحت من أجله قد أثمر نتيجه، وفي تلك الليلة أتاها إيميل كما أتى مجموعة كبيرة غيرها عن طلب وظيفة فى تخصصها، فقالت لنفسها كأن الوظيفة أتت بميعادها، وذهبت متحمسة، وكانت المقابلة:

ودخلت إلى المكتب الكبير، والتي ما إن رأت صاحبه حتى انتفض واقفا، ورحب بها بشدة وكأنه كان بانتظار أحد الأصدقاء، فغلب لديها التعجب من الاستقبال على السعادة بشعورها بقبولها بالوظيفة، وأخذت تتحدث عن مؤهلاتها: خريجة كلية إعلام قسم علاقات عامة، وعملت بجمعية س المتخصصة بإعمار المناطق العشوائية، فقاطعها: تلك التى

أغلقت منذ ثلاثة أعوام تقريبا، فقاطعته وهي تسأله بعد أن رأى لمعة بعينيها: ماذا حل بتلك الجمعية؟ ولماذا أغلقت؟، فابتسم بلؤم قائلا: ألا تعرفين؟، فاصفر وجهها وهي تقول: لقد تركتها منذ سنوات. وتحسست شعرها بتوتر وأخفضت رأسها وهي مترددة هل تتحدث أم لا عن فترة سجنها؟، فقطع لديها التوتر قائلا بعطف وجدية: العمل سيبدأ إن شاء الله بعد شهر من الآن، لا تقلقى يا نهى، قالها وكأنه يعرفها تماما فالتفتت إليه دون أن تتكلم متعجبة، إنها لم تخبره باسمها، فأشار مبتسما إلى الملف الذى قدمته وعليه اسمها، فنظرت إليه بتفهم برغم تساؤلها وشكرته وغادرت، وبعد أن غادرت رجع بكرسيه إلى الورا بارتياع وهو يفكر فى أمر ما ثم فتح درجا بمكتبه به خير: شهادة فتاة تغيير مسار قضية رنا فاروق، ورجع بذاكرته للورا وتذكر ليلة ضبابية، كان يسألها بها:

– هل أعطتك أوراقا؟

– فأجابت نعم، وأنا أردت أن أقوم بالشهادة...

– فقاطعتها بحسرة: ماذا ستفعل شهادتك أمام هذا الكم من الأدلة التى تم طمسها، خاصة أنها لم تقتل بتلك الليلة، وهناك شهود رأوها باليوم التالى مخدرة، ومن المعروف أنها تعمل معهم منذ فترة، ولن يصيبك سوى أن تتورطى بالأمر كما تورطت.

ثم تذكر مفاجئته بها وهي تدخل من باب قاعة المحكمة وهي تقدم مستندات وأوراق وتسجيلات وصور، وسألها القاضى مباشرة: وهل كان معك إذن النياية قبل التسجيل، فأخبرته: لا وأنا أعلم أن التسجيلات

قد لا تعترف بها النياية ولكنها توضح أموراً بالأوراق والصور سيتم الاعتراف بها، استطردت قائلة بشجاعة:
إن كنت انتظرت إذنا من النياية، كانت ستخفي كل تلك الحقائق، لقد اخترقوا كل الأجهزة، لقد كنت بالبداية أدافع عن شابة تلوثت سمعتها، فوجدت نفسى أدافع عن مجتمع تلوثت سمعته بأكمله.

التبعية

وسارت بالشوارع وهى سعيدة، بعد أن أخذت جرعة كبيرة من الثقة، استردت بها فتاة تناستها، إن النصر له طعم آخر مختلف عن الهزيمة وسألت نفسها: إنها ليست مجرد فتاة سطحية بسيطة، إن بأعماقها إيمانا هربت منه، وأراد القدر أن تمر على شاطئ النيل بنفس المكان الذى كانت تقابل به سامر، و تذكرت آخر لقاء فى ذلك الليل الحزين، وتذكرته وتذكرت تلك الأيام، وانقبض قلبها بشدة وشعرت بسكين ينفذ إلى غصة قلبها. وتركت شاطئ النهر وجلست منكمشة على كرسي بالطريق، وتخبطت برأسها صورتها الجديدة بصورة الفتاة، بصور المشروع، بصور الناس، وانتهت الصور بصورة سامر وهو يتركها ويغادر، وقالت لنفسها: كلنا إمعة، كلنا نتبع بعضنا كالخراف نحو المذبح، لماذا تغيرت؟ هل لإرضاء سامر أم لإرضاء المجتمع الذى تنكر لها أم هو شعور بالنقص تكمله بمظهر جذاب؟

أشفقت على نفسها وهى تتحسس خصلات شعرها الناعم وهى مسترخية سعيدة وهى تسأل نفسها: وهل هى مختلفة فى ذلك عن

غيرها من الفتيات؟ أليست كلهن يشبهن بعضهن فى ذلك؟! .. الشباب يلهث نحو الأهواء والفتيات تتبع أهواءهن التى يرفضها بالنهاية الشباب الذى أضحى يناقض نفسه بين لهثه نحو الصورة الغربية التى فرضت عليه فرضا وبين تمسكه بجذوره! متى تنتهى تبعية المرأة للرجل بأن يكون ملبسها رهينا لذوقه، وأين الحرية فى ذلك؟، وأين ذاتها فيما تلبس؟ ومتى تنتهى تبعية الشباب والفتيات للذوق الغربى، الذى أعطانا صورة ترفضها جذورنا وتشتاق إليها أنفسنا التى لا تشبع وتطلب المزيد؟ متى نفرض ذاتنا نحن على الآخرين لا أن نتبعهم فنكون قشة تطير حسب أهوائهم التى تتغير؟ أم أن الضعيف يجب دوما أن يتبع الأقوى وإن كان على خطأ؟.

يوم جديد

وسمعت أخبارا أنه تقدم لخطبة فتاة أخرى، وفى تلك الأثناء قابلت سامرا صدفة بالسوبر ماركت وعلى عكس المرة السابقة، لم تنتظر أن ينظر نحوها فما أن رأته حتى أشاحت بوجهها، بينما ظل ينظر إليها، وغادرت مسرعة، وما أن عادت إلى المنزل حتى أمسكت الموبايل وظلت تنظر إلى نمرة وضربت على نمرة بتهور وسألته: ما رأيك أن نتقابل اليوم؟ فوافق، وجلست تفكر كثيرا حتى آن أوان اللقاء، وذهبت لتقابله، وبنفس المكان الذى أحبته كثيرا شعرت بمرارة وحزن لرؤياه، ولكن تبددت الأحزان لديها ما أن رأته، وبعد أن ألقى كل منهما التحية على الآخر لاذا بالصمت لبعض الوقت، كان كل منهما واقفا يتطلع إلى

النهر أمامه ثم نظر إليها بحب وشوق: لقد أحببتك ولكن الظروف... ثم استطرد قائلاً: يا ليت الأيام الماضية استمرت فأطرقت برأسها وهي تنظر للمياة قائلة: حينما نظرت إلى تلك النظرة ظننت أنها أنستني ما عانيت لسنوات، لقد كنت خاسرة وظننت أنى رابحة، إننى أبكى اليوم أكبر خدعة ووهم فى حياتى، إننى أتساءل اليوم هل استحقت تلك النظرة كل ما عانيت؟!

فقال: لقد أحببتك... ولكن الظروف... وصمت للحظة واستطرد قائلاً: يا ليت الأيام الماضية استمرت، فردت باكية بعصبية أكثر: لماذا تصرح لى بذلك الآن؟ واحتنق نفسها وهي تسأله: لماذا تقدمت إلى؟ لماذا اقتربت منى وأنت ترفضنى؟ لماذا اهتممت وأنت تهملنى؟ ونظرت نحو الماء، لتخفى دموعها فأكمل:

– ليتك ظلت تلك الفتاة التى تقدمت لها منذ خمس سنوات.

فقاطعته محاولة أن توقظه كأنها تحاول أن تحيى إنسانا يحتضر: ولكنك لم تحببني آنذاك، كنت تحب تلك صاحبة المظهر واستدركت بابتسامة ساخرة وهي تنظر للنهر أمامها: بالأمس لم تكن تحب تلك صاحبة المظهر البسيط ولكنك كنت مستعدا للزواج بها، واليوم أنت تحب تلك الفتاة التى أمامك ولكنك لست مستعدا للزواج بها، وكلتاها أنا. وجلست من هول صدمتها ورفعت رأسها إليه فوجدته قد غادر، فنظرت نحوه بحسرة وهي تودعه للمرة الأخيرة.

ابتسمت ساخرة وهي ناظرة بعينيها الدامعتين تشرب ما بهما من حسرة للنهر، تحدث نفسها: لقد أحببت العين الغائرة، أثارك

اللعز، سحرك الصمت، أحببت وهم البراءة، لم تحب حبي، لم تحب ضحكي، لم تحب بساطتي، لم تحب نهى التى كان من المقدر أن تحيا معك وإنما أحببت شبحتها الذى لم يخلق له أن يعيش معك! لم أكن لك منذ البداية لا بشعرى الطويل أو القصير، ولا بملبسى القديم أو الحديث. ما أمر به الآن لن يكون أقسى مما مضى، فإنى قوية بما يكفى وخلفته وراءها كما خلفها وراءه ومضت ترتطم بالرياح الشديدة التى تواجهها بالشارع العريض بجوار النيل، يتطاير فيها شعرها القصير الذى يريد أن يتناثر مع دموعها بالرياح، وفجأة دوى ارتطام شديد أمامها، أعجزها عن المرور، ورأت أمامها البوابة التى طالما حاولت التهرب من ذكرائها: البوابة القديمة الرمادية الغامقة الحديدية تغلق أمام وجهها... بوابة الزنزانة... زنزانة أمن الدولة.

..وانغلقت الزنزانة

سقطت على الأرض منهارة عاجزة عن المضى، تراها أمامها تحاول أن تتجاوزها ولكنها لا تستطيع، وجدت أمامها الحقيقة حين انتزعت من فراشها وألقيت فى غيابات السجن وكيف أهينت وذلت، وانتهمكت حرمانها، ورأت الحقيقة التى تخفت عنها طيلة الفترة الماضية.. فترة الوهم الجميل، وهم الحب، وهم البراءة، وهم الطفولة، وهم المراهقة، الذى حاولت أن تنسى به الحقيقة التى عاشتها، وأيقنت أن المراهقة لا تستمر... الطفولة لا تستمر... السعادة لا تستمر... الحياة لا تدوم... وهم السعادة اللحظية لا يستمر، وكلها أوهاى يتلهى بها الإنسان عن

الحقيقة... وكل منا له وهمه الذى عاش له وبالنهاية تركه ومات ،
وفجأة وجدت الحقيقة أمامها وسمعت هذا الارتطام الشديد للزنزانة
وهى تغلق عينيها وتمسك ذراعيها وهى منكشمة كأنها أمام وحش
كاسر، الصورة التى هربت منها... الصوت الذى هربت منه... حين
ألقيت فيها وأغلقت الزنزانة وصفت وحدها باكية مهانة محرومة
من أهلها من أمها وأبيها، تتذكر وجوههم المرعوبة عليها، تتذكر
ضعفهم، انكسارهم، ذلها وذلمهم وهى تبكى بصوت عال بعد أن أوقعها
البكاء على الأرض واستوقفتها صورة باب الزنزانة. نظرت للوراء تبحث
عنه بعينيها كطفل تائه عاجز يبحث عن أحد والديه فى الزحام،
نظرت حولها دامعة العينين خائفة من متاهات الزمن الذى ألقاها
بها، إنها خائفة، إنها مرتعدة أن تستمر وسط هذا الطريق المظلم، إنها
تحتاجه، إنها تعتمد عليه، لقد بنت قصورا فوق أرضه الرملية، عندئذ
اقترب منها صاحب السيارة السوداء، ولكنها لم تره، وظلت تسير
والدموع متجمدة بعينيها، وسارت وهى تلملم نفسها ممسكة بيديها
ذراعيها وسارت بهدوء بالطريق المظلم البارد على شاطئ النيل، المليء
بسيارات مسرعة تسرق الأعمار، ذات كشافات قوية تسرق الأنظار
شعرت بالوحدة، كانت خائفة كيف ستكمل طريقها وحيدة؟ اليوم
انتهت قصته، اليوم ستكمل طريقها وحدها، اليوم بدأت تعرفه أكثر
ولكنها تتألم...، إنها تحبه. وبينما كانت تسير أتت حافلة بإضاءة
قوية، أشارت لها بالتوقف وركبتها، وظل يتطلع إليها من بعيد، كان
الجو قارسا، الشوارع كانت جافة باردة، الحافلة تخترق بسرعة فائقة

الشوارع الفارغة، كأنها تسوقها إلى عالم مجهول، الطرق تبرق بالمياه، تزيدها لمعة الدموع التى بعينيهما، وكان الجو باردا قارسا، وبيدين مرتعشتين أمسكت بشال كانت تحمله وغطت به شعرها وهى تبكى بحرارة.. إن البعد عن طاعة الله كان له أثر عميق جعلها تتخبط يمينا ويسارا، ليس مجرد أن يصلى الإنسان يكون القرب من الله، إنه طريق وارف بالأشجار، إن المعصية تورث حزنا يورث الحزن العظيم الذى قد لا ندرکه ولكننا نشعر به، وخانتها عيناها تبحث عن سامر ولكنها لم تجده وإنما رأت العربة السوداء.

المراة

ورجعت منزلها، ورجع صاحب العربة السوداء إلى منزله، ونظرت نهى إلى المراة، وألقى صاحب العربة السوداء المفاتيح وألقى بنفسه إلى أقرب أريكة وأخذ يتذكرها، وتذكرت نهى كلام سامر وهى تنظر للفتاة التى أمامها بالمراة بغضب، إنها لا تعرفها، إنها تتبعه، إن هذا الشكل ليس شكلها وإنما شكله، إنها له، إنها غريبة عن نفسها، وظلت تنظر لها بتحد لعلها تختفى ولكنها أبت أن تختفى، وعادت عاجزة إلى السرير، وبدأت تتحسس شعرها ووجهها، إنه يحبه، إنه لن يتركها، وجرت نحو المراة ولكن ظهرت صورة أخرى بالأفق، إنها ملامحها القديمة، نظرت إلى مرآتها تتخبط داخلها صورتان: واحدة لفتاة حزينة نحيلة ذات شعر قصير والأخرى لفتاة بسيطة ذات شعر طويل، تتخبط الصورتان تأتى هذه وتذهب تلك، أيهما أحب؟...

أيهما أراد أن تكون، أيهما ستحظى به؟ وتأتى هذه وتذهب تلك... لمن تنتمي تلك الصورة؟ من تكون؟ وبدأت بالبكاء الذى أتى على استحياء ثم تصاعد بشدة ثم بشدة أعظم، إنها تشعر بغضب جم من تلك الصورة التى صنعها، إن ملامحها تذكرها به وبالآلام التى مرت بها، أى الصورتين لها؟ إحداها كانت هى ورفضتها من أجله، والأخرى لا تعرفها كونتها ظروف قاسية، إنها حبيبته التى ألقاها من أجل صورتها الأولى؟ أيهما أراد؟ أيهما هى تريد؟ إنها لا تريد شيئا إنها تريده هو، هنا هوت على الأرض، لكن صورتها الثانية ظلت على المرآة وبدأت تتسلل لأعلى لتراها، وما أن رأتها حتى قالت: لماذا؟... لماذا؟ واشتد البكاء بهستيريا: لماذا؟ وتأملت بهدوء... بصمت ثم أغلقت عينيها مودعة وذرفت دمعها الأخيرة...

الابتسامة

وأتى يوم زفافه... جرت وجرت، لكن ما بها لم يهدأ، عشقته... أحبته بجنون... نسجت له من الخيال بطلا... وعادت للمنزل وجاءت الزفة، وكان صوت الدفوف عاليا ولكنه لم يكن أعلى من صوت نبضات قلبها، النار بقلبها تضىء الحى بأكمله، ووقفت وراء النافذة: نافذة الأحلام بالأمس والأحزان اليوم، المكان مزدحم بأناس كثيرين، تحرك رأسها يمينا ويسارا حتى تراه.

خافت أن تشعل الضوء، تخفت هى ولم يكن لها أن تتخفى، وتباهى هو ولم يكن له أن يتباهى، الموسيقى صاحبة، الأنوار تملأ الشارع،

السيارات كثيرة، وهبط من منزله ورأت ملحمة الناس ملتفين حوله بشدة وتذكرت حشداً آخر لا يشبهه ولكنه مثله : نفس الالتفاف من البشر، نفس الأضواء، نفس الغدر، نفس الكذب، نفس النفاق... وتساقطت دموعها وشعرت بنفس الوحدة، نفس الإهمال ونفس الألم ورجعت للوراء للمرة الأولى لتتذكر رغما عنها ذلك اليوم من الماضي، كان الجمع ملتفاً حول امرأة أجنبية وكانت تقف بعيداً، وتلك المرأة في المركز وحولها الجمع العقيم يحتفلون بميلاد كذبة جديدة شارك بها الجميع حتى هي، وفي تلك الليلة ارتدى سامر أفضل حلية له، كان وسيماً وكان المكان مزدحماً، انتقلت من أكثر من نافذة حتى تراه وانتظرت انتظارها الأخير خلف زجاج النافذة الشفاف الأبيض... وفجأة رأت ما لم تنتظر أن تراه... ما لم تتوقع أن تجده... رأت ابتسامة... ابتسامة لم ترها من قبل على وجهه.

الزنزانة

هوت على الأرض... أمسكت ذراعيها... صرخت بأعماقها، ما هذا الحب الذي عاشت به وله؟ ما هذا الوهم؟ صم صوت بكائها أذنيها، عمّت عينيها الدموع، لم تعد تسمع صوت الدفوف، لم تعد ترى الأضواء، ظلت تبكي على الأرض الباردة للحجرة المظلمة، وما أن أنهكها البكاء حتى رفعت رأسها لترآها أمامها وتحيط بها، نفس البرودة، نفس المظلمة... حجرة الزنزانة التي مكثت بها لسنوات.

..وأغلقت قضبان النافذة

وأغلقت نافذة الأمل... نافذة الحب... نافذة العشق... والتي ظلت لسنوات مصدرا للفرحة والسعادة وأضحت اليوم مصدرا للشقاء، هو الشارع والدنيا التي أحببتها، كان الليل مظلما، أنارته أنوار الفرح وأضواء السيارات ووسط تلك الأنوار غادر وسط الزحام لآخر مرة تراه، حركت رأسها باستهتار مع آخر دمعة في لحظة قاسية من أقسى لحظات عمرها، كيف ستعيش اليوم؟ إلى أين تذهب؟ إن حياتها انتهت، لقد أهانها إنها لا تلائمها اليوم، خطب فتاة تشبهها بالأمس ولسخرية القدر منها ومنه أن سماتها نفس سماتها بالماضي، ذات شعر طويل وعينين واسعتين، بسيطة، من أسرة متوسطة ولعله وهو معها سيظل سارحا بها، ابتسمت بسخرية، يا للدنيا، نسعى إليها وهي تسخر من كل صاحب حاجة فيها، من يبحث فيها عن الحب يقتله الحب، ما نأخذه اليوم يذهب به الغد، وفرحة اليوم حزن الغد، ألفت مظهرا لا يلائمها من أجله، ولم تشعر بالمعاناة بسببه، ألبسها الوهم حبا لم يكن مقدرًا لها يوما، وبينما كانت تبكي دخلت والدتها قائلة لها: لا تبكي سينتهي هذا الأمر قريبا، سيعوضك الله خيرا منه، ونظرت لها بعطف قائلة: لازم تعيشي، فبكت قائلة بانهيبار: أعيش... أعيش إزاي؟ لقد عشت أعواما وأعواما في وهم كبير لقد حطمني أكثر من أي شيء، لم أعد أقوى أن أعيش... مجرد أن أعيش، كل شيء انتهى. ووافقتها أمها فيما تقول فلا مجال لتكذيبه. وأكملت نهى وهي تقهقه بالبكاء لقد عشت سنينا وراء القضبان، وكان الجميع يعلم، إن

القضبان كانت دوما أمامي، معي حيثما أسير، هنا داخل قلبي، وإنما عشتها حينما تهربت من حقيقتي، حين أخفيت نفسي في ثوب ليس ثوبي، حينما تعريت من حقيقة مشرفة من أجل إرضاء غيري، لقد رفضت نفسي قبل أن يرفضها غيري، وبكت وهي تقول: إنني لم أنس ما تعرضت له ولكنني تناسيت همومي، وأن أحيى أعواما ضاعت، وحباً خاسراً... أردت أن أعيش كطفلة أو مراهقة ولكن الدور الذي عايشته لم يناسبني.

على الشاطئ

وخرجت إلى شاطئ النهر وحيدة تلك المرة، لقد أتى اليوم الذي فرق كلا منهما للمرة الثانية لكن بقسوة أشد، لقد تخلى عنها، شعرت بكرامتها تهان أمامه، شعرت بالمذلة إلى جواره، شعر بضعفها ولم يعجبه، اليوم انتهى حبها، اليوم عرفت من كان، وما أصبحت عليه، إن دنياها انتهت اليوم، ماذا تفعل؟ إنها لا تطيق ذلك الألم لا تطيق تلك الدنيا، ماذا تفعل؟ إنها تشعر بالضيق، من أين تستمد قوتها، وامتزجت عينها اللتان تبرقان ببريق الذهب مع الشمس تتطلعان للمياه الجارية وهي تتذكره منذ اللحظة الأولى، سامر شاب مظهره تحلم به الكثير من الفتيات، لا يبحث إلا عن الملائم له، أناني ولكنه ذكي قدر استطاعته ليخفي ذلك حتى عن نفسه، إنه رمز لمجتمع ارتدى ثوب الندالة من سنوات، إنه لم يحبها يوماً، لا بالشعر الطويل ولا بالشعر القصير... لا بعينيها الواسعتين، ولا بعينيها الغائرتين.

إنه لم يعرفها يوماً، توقفت عن التذكر وأمسكت رأسها فجأة قائلة :
يا له من قاس... يا له من جاف. كان هذا بعد شهر لتركه إياها، لم تصل
إلى هذا القدر من الفهم باليوم الأول، بل احتاجت لفترة، ببدايتها كانت
تسير بالشوارع لا تطيق أن تجلس، وداخلها بركان تخاف أن ينفجر،
فيحرقها ويحرق من حولها، لقد أتى اليوم الذى أصبح فيه اثنين بعد أن
كانا واحداً، وتحولت متعة الحب إلى ألم الكره ورغبة الثأر والانتقام...
وبعد الانسجام أتى التحدى، وإما أن تستمر بلعبة الحب والكره وإما
البعد عن المحب وعن المكان وعن النفس أحياناً، وتتيه عن قلبها حتى
تلقاه فجأة فتصاب بالحزن وخيبة الأمل. ثم لحقها أيام كانت فيها
عاجزة عجزاً لم تعلم مثله من قبل من فقدان الثقة والدمار جلست فيها
أياماً عديدة على كرسي لا تعمل شيئاً ولا تحب أن تفعل شيئاً وأصابتها
برودة شديدة بجسدها برغم أنها كانت منذ أيام دافئة، كانت تبكى كل
يوم لساعات عديدة فى ظلمة غرفتها، وكانت تستيقظ ببرود ليس لديها
رغبة فى شيء، لا تدرك ولا تريد أن تدرك شيئاً وسيطر عليها شعور أنها
لا شيء وجلست أياماً وأياماً سارحة محطمة، مبهوتة لا تفعل شيئاً سوى
شرب الشاي، كوباً وراء كوب، تتشربه دون تذوق لا تفكر بأمر إلا هو،
كأن كأس خمر أذهب لبها وأصابها بشلل بالنهاية، كانت تشعر بأنها
تافهة، بأنها مهملة ومهملة كأن دنياها توقفت عند قدميه.

البيان الهش

ومرت الأيام ولم تعد تتذكر سوى الألم الذى خلفه وراءه كما خلفها
وراءه كأنها كم مهملة، إنه لن يتألم كما تألمت لقد كان هذا قراره.

حبها كان قائما على بنیان هش، على مظهر غريب عنها منذ البداية، لعلها لم تشعر بتلك الإهانة حين تركها المرة الأولى، لماذا؟ هل لأنها تغيرت من أجله؟، أم لأنها عصت ربه وأطاعته منذ أن تعلقت بحبل أهوائه، الذى التف بمصيرها ليخنقه، احتارت مع تذبذب شخصيته لحبه أمرا واختياره أمرا، احتارت لإرضائه ولم يكن فرضا عليها إرضاءه، مسخت نفسها من أجله، نست نفسها ككيان مستقل وليس تابعا لرجل، ترجت منه قرار زواج لم يكن لها أن تترجاه، تعامل معها بقسوة كأغلب قصص الحب التى سرعان ما تتحول من نسيان للذات إلى إهانة ومأساة، إنها حقا مأساة أن تنتهى معظم قصص الحب بإهانة، بإهمال ساخر من طرف للطرف الآخر.

العبودية للبشر

هل الحب يورث الإهانة؟! إنه أمر آخر، لعله عبودية من نوع خاص، شعورها باحترامه، بتفوقه عليها وبأنه الأفضل، وبأنها تبعته ما زادها ألما، إن الحب لا يكون ضعفا إن لم يؤله المحبوب، إن لم يؤسر المحب للمحبوب، إن من يرفضون العبودية لله يقبلون العبودية للبشر، هل إن تمسكت بعبوديتها لله، ورفضت أن تعصى ربه من أجل أحد من البشر هل كانت ستشعر بمثل هذا الألم؟ هل إذا كان لها كيانها المستقل هل كانت ستعجز هكذا؟ هل كان سامر حبها الوحيد أم ذنبها الكبير؟ هل فعلت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ومن طلب رضا الله رضى

الله عنه وأرضى عنه الناس صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن هل كانت نهى وحيدة في ذلك وهل هي فقط من تخلى عن حقيقته وتسول الأوهام؟ ألم تتلون البنات بألوان خيال الأولاد؟ ألم يغيرن في هذا أشكالهن وأصواتهن؟ هل من أحبين استحققن ذلك؟ ألم يكن يبحثن عن الحب والزواج؟ هل جعلن من أنفسهن لعبة؟ وهل الفتيات وحدهن في ذلك أم أن هذه سنة المجتمعات والبشر؟.. تلك المجتمعات التي لا تقل ضعفا عن فتاة مراهقة محبة صغيرة!

ألم تغير تلك الشعوب من هيئتها، ومن حدودها، ومن ملامحها، ومن ملابسها، بل أيضا لغتها؟ شعوب تحررت اليوم بفضل ما بذله أجدادهم من دمائهم، فانساق أبناؤهم للذل والتقليد ناسين قيمهم وهوياتهم. وهل توقع الآباء أن يجثو هكذا الأبناء أمام من احتل بلدهم بالأمس ليحتلوا قلوبهم وعقولهم اليوم؟ وسارت بالشوارع وظلت ترقب المجتمع حولها، لم تشعر إنها مختلفة، شعرت أن الدنيا تدور حولها لأشخاص مجانيين مختبئين في مظهر يخفيهم، يخفى إرادتهم، أصالتهم، هويتهم، اختلفت الأمور خلال بضع سنوات، المغنية بالأمس كانت ترتدى ملابس محترمة عن مذيعة اليوم: مسلسل اليوم أشبه بفيلم هابط أكثر من أنه دراما تليفزيونية. هل علينا أن نتبدل لنكون كما يحب من نحب؟ لماذا تتغير الوجوه؟ لماذا تتغير المظاهر من عصر لعصر؟ لماذا تعجبنا ملابس لا نرتديها، ونلقى ملابس جديدة لمجرد مخالفتها للموضة؟ إنها ليست المختلفة عن المكان فكل من به مختلف وغريب غريب حتى عن نفسه، لماذا أصبحت الوجوه متشابهة والنفوس مزيفة؟ ولماذا أصبحت مظاهرنا أبعد مما تكون عن أرواحنا؟ من نحب أن نرضى؟ أنحب أن نرضى بعضا من مصممي الأزياء الغربيين

الذين قد يكون منهم الكثير من المنحليين، مما سهل على الأشخاص العرى وارتداء ملابس لعلهم ما استطاعوا يوما أن يرتدوها؟ أو لاتهموا بالوقاحة أو الجنون، تغلب عليهم أشخاص أسوأ من الشياطين، قتلوا الحياء، والشخصية المستقلة أو نحب أن نرضى محبا مذبذبا لا يعرف ماذا يريد، شباب متخبط في ثقافات متعددة غريبة وشاذة ولا تغنى ولا تسمن من جوع ولا تعنيه كثيرا، كان سامر رمزى أحد هؤلاء الشباب تذكرته حينما كان يستمع للأغاني الغربية، متابعا بشغف الأفلام والمسلسلات والبرامج الأجنبية، منبها بشدة بالحياة الغربية، ومع هذا يحب أن يعيش الحياة الشرقية، خطب فتاة لم يكن مشدودا لها، وكانت ذات طبيعة مختلفة عن بطلات أحلامه، ومع هذا كان مستعدا للزواج بها، هل التناقض الذى نعيشه اليوم أثمر شخصية سامر رمزى؟ أم أثمر شخصية نهى؟ أم أثمر هذا المجتمع المتناقض مع نفسه؟ إنها ليست أزمة محب، بل أزمة مجتمع انساق وراء الأهواء التى تطلب دوما المزيد ولا تشبع، فارتدى كما تقول الموضة، وشرب السيجار والمخدر لجذب الانتباه، تشبه باليهود بالملبس، انساق العالم كله وراء مصممين علمانيين ويهود، ألبسونا ثقافة لم تكن لنا، وبعد ذلك سخروا هم أنفسهم منا، بعد أن نحللت أجسادنا وخارت قوانا، وذبلت أنفسنا وتمكن الضعف منا.

التحرر

واستيقظت فجرا وشعرت بسلام وهدوء لم تعهده من قبل، بعد أن تخلت عما جعلها تتشتت كثيرا عن نفسها، وكما يخرج المريض

من حجرة العمليات يكون منهكا ولكنه سرعان ما يمثل للشفاء بدأت تتحسن حالتها النفسية والصحية وثقتها بالنفس...

كما يصرخ الطفل لحظة ولادته ، كانت نهى تحتاج إلى لكمة قوية لتتخلص من العبودية ، وبعد إهمال لشهور بدأت تستيقظ، بعد أيام قضتها منهزمة نائمة استيقظت مبكرا مشطت شعرها الطويل وارتدت فوقه الحجاب ، عيناها اتسعت ، لم تعد نحيلة ولكنها أصبحت رشيقة ، أصبحت أكثر ثقة بالنفس ، لم تعد رهينة بذوق رجل وإن كان أكثرهم جاذبية ، ليس مهما إن كان شعرها طويلا أم قصيرا ، وارتدت الحجاب وارتدت جوبا طويلا وواسعا وفوقه بلوزة رقيقة وطرحة منسدلة على كتفيها وصدرها وخرجت للعمل ، وقررت أن تخرج من حاجز الكبت واليأس الذى فرضته عليها الظروف ، وخرجت فى أول يوم للعمل بالشركة . ومر أتوبيس الشركة بنفس المكان الذى مرت عليه من قبل وأغلقت عينيها ، وتخبطت برأسها ذكريات لحفلة ومصورين ، وتكريم ، وضحكات ، وأجانب ، وأناس فقراء وأفاقت على توقف الأتوبيس بنفس المكان ، ونزلت منه مع المجموعة وتذكرت مجموعة أخرى من أشكال مختلفة وجنسيات مختلفة ، وأتى صاحب الشركة بسيارته والتي ركنها خلف الأتوبيس ولم ترها نهى ، كان يرتدى قميصا أزرق اللون يربط فوقه بلوفر ، كانت هيئته ودخلته مبهرة ، كرئيس وجيه وشاب ، ووقف مع المجموعة بمدخل الشركة يتحدث عن المدينة الجديدة التى ستبنى بالحى العشوائى وبناء مجمع دينى ليرقى بأخلاق سكان المنطقة ، ويحوى مركزا طبيا وورشات لأصحاب الحرف بالمنطقة ، إننا

لن نعطيهم هدايا أو أموالا نعطيها بترفع ونغادر، وإنما سنساعدهم ليبنوا مستقبلهم بأنفسهم وسنزرع أشجارا وحدائق لخلق مناخ بيئي جيد بالمنطقة وأكمل قائلا: إنه سيتم إنشاء مدينة سكنية بمياه وصرف صحي وتوصيل الكهرباء على نصف المساحة بحيث سيساعد التوسع الرأسي على حل أزمة كل سكان هذا الحي العشوائي، وبمقابل بيع باقى الأرض سيتم دفع جزء كبير من تكاليف المشروع، وسيساعدنا أصحاب الحرف بالمنطقة وبالطبع سيتحقق كل هذا إن شاء الله تعالى، وبينما كان يتحدث بحماس جال بذاكرتها خيال شاب جاء يتخفى فى ليلة ضبابية، مرتديا سويترا كبيرا أصفر اللون رفع ياقته ليخفى نصف وجهه، ويتحدث بصوت خافت، وفوجئت أنها نفس العينين، نفس الصوت، وفى تلك اللحظة التقى تاريخ قديم على صفحة عينين لفتاة وشاب، كانت ليلة باردة، وكان واقفا على جانب الفندق، وكان يأخذ ما معها من أوراق، ويقول بصوت مرتعش باك: لقد قتلوها بعد أن شوهوا سمعتها، إننى لن أتركهم يهنؤوا بفعلتهم، ودمعت عيناه ودمعت عيناهما، والتقت عيناهما اليوم بعد أعوام من البكاء والحزن، وتأكدت أنه هو وتأكد أنها عرفته، فحقق قلبها بشدة وسرت داخلها رعشة، وانسحبت بهدوء وتطلع نحوها وهى تغادر وصعدت إلى مكتبه، ودخلت ببطء وكأنها تدخل عالما من الماضى كانت قد نسيتها ومع هذا يسوقها رغما عنها إلى هذا المكان، وجلست على جهاز الكمبيوتر فرأت الرسائل ورأت المشروع القديم، وفى تلك اللحظة سمعت بجوارها صوتا هادئا يقول لها: نعم إننى من أرسل لك الرسائل، فالتفتت بعينيها

الدامعتين قائلة: إنه أنت، إنك من أنهى التحقيق معي، إنك من أرسل لي الرسائل وفي تلك اللحظة خفق قلبها خفقانا تعلمه جيدا ودون تفكير هربت منه وسارت ودموعها تتساقط وقلبها يخفق بشدة وظلت تسير حتى أنهكها ألم لحظات أو ألم سنوات، تبتسم للحظة وتبكي للحظات، ويواجهها بالطريق ذكريات تتخبط أمام عينيها لسلسال قديم لسنين من الظلم...

السلسال

صور السجن... فصلها من الشركة... ترك سامر لها بالمرّة الأولى... وبالمرّة الثانية... تخلى زملائها عنها... الكوابيس، وقوفها وحيدة في فناء الشركة... ووقوفها وحيدة بالشارع أمام نظر سامر... وتركها وحيدة بالسجن... وفاة والدها... ملامح وجهها الغريبة عنها لحظات ولحظات قاسية، كيف احتملتها، صور المشروع الوهمي الذي أنشئ ولم يتم، صور كاميرات، وأناس كثيرين... وسارت وهي تسمح دموعها. وما أن أنهكت حتى جلست على طرف الطريق فرأت السيارة تمر من أمامها فوقفت على ساقبها ونظرت بعناد وتحد إلى السيارة وأخرجت التليفون وفتحت الأسماء وكأنها تفتح ماضيا أغلقته وتطلعت إلى رقم محدد وضغطت على الرقم، فتوقفت السيارة بالطريق المقابل، فتجاوزت نهى الطريق، وترجل صاحب السيارة السوداء منها، وما أن تواجهها حتى قال لها: مر زمان طويل فأومأت له برأسها.

الفتاة الأخرى

وتوجهت إلى شاطئ النهر بجوار السيارة، ونظرت إلى الشاطئ البعيد ودون أن تلتفت إليه سألته بغموض وقوة فتاة أخرى اختفت لبرهة وسرعان ما عادت للظهور بعدما تخلت عما أصابها من وهن ونظرت نحوه: لماذا تصر على فتح صفحة أغلقت منذ سنوات؟ فأجابها قائلاً:

إن كنت تستطيعين أن تنسى فسأنسى؟

فقالت: إنك من أرسل إلى الإيميلات.

فأكمل: والرسائل بالسجن.

فقالت: إنك من زارني بالزنازة حينما كنت بين الحياة والموت،

وأكمل: وأدخلتك المستشفى.

فقالت له: ولماذا أخفيت نفسك وأنت تساعدني؟ فأطرق رأسه

ولم يعقب، فشعرت بما أحس به دون أن يتكلم ولاذا بالصمت للحظات،

فأكملت محاولة تجاهل مشاعره نحوها قائلة: إنك من كنت بالملاهي،

وعلى شاطئ النهر، ومن طالب بوقف التحقيق معي، بالمرّة الأخيرة؟

من أين لك السلطة؟

فرد عليها: لقد تغيرت كثير من الأمور، ونظر نحوها بتفهم أنت

أيضا تغيرت.

فنظرت إلى وجهها بصفحة المياه قائلة بحسرة: نعم.

* * *

وجوه

تنهدت بحزن دفين، وهى تنظر نحو الماء الذى يأتى ويذهب وكأنه الزمن الذى يأتى بأيام ووجوه ثم يفنيها وقالت: كانت ليلة مخيفة رأيتهم بالفندق بشرم الشيخ، مجموعة من السياح الذين لا أدرى من أى البلاد أتوا، كانت مجموعة عجيبة من أعراق وأشكال ووجوه وأصول مختلفة يرقبون يتلصون بمجرد اجتماعهم، تشعر بالريبة، وأغمضت عينيها بعد أن سرت بجسدها رعدة باردة غريبة، كان هناك رجل شكله مخيف ذو شعر أسود طويل يغطى ظهره كله وقد أسدل اللحية، كان قمحاويا وبوجهه بثور كثيرة، أما باقى المجموعة فكان شكلها مألوفاً: فمنهم الأسمر والأبيض صاحب الملامح الشرقية والغربية، كانوا يتحدثون اللغة الإنجليزية، وسرعان ما غير اثنان من المجموعة الكاميرات بعد أن تحدثوا لبضع دقائق بصوت خافت لم أسمع منه سوى بضع كلمات بسيطة كانوا يقولونها بصوت عال، وما أن أنهوا حديثهم حتى غادروا، وما أن ذهبوا أتانى كوب القهوة الذى بدأت أرتشف منه، وغادرت الفندق لساعات لأقوم بجولة، كنت هناك فى مهمة عمل تابعة لشركتنا، كنت أعدها فرصة قد حظيت عليها، ولكنى لم أدرك أنها مأساتى، وما أن رجعت حتى اتصلت بى مدام جارانس التى اعتذرت بأن لديها بعض الأمور الهامة اليوم وأنها قرأت الإيميل الذى أرسلته لها الشركة بخصوص الدعم الخاص بتعمير منطقة من المناطق العشوائية بالقاهرة، وستتحدث معى بخصوص اتفاقية الشراكة بين مؤسستهم التى تعنى بمشاكل الشرق

الأوسط وبين شركتنا، وستقابلني باليوم التالي لنتحدث عن هذا الأمر حتى وجدت ذات المجموعة بالبهو، وهناك رأيت إحدى سيدات المجموعة تقترب من فتاة مصرية اتخذت الاستايل الغربى كساتر يخفى الوهن بشخصيتها كما اعتقدت حينها، وبدأت تتحدث معها هذه المرة بصوت عال، تعالى تناولى معنا العشاء، كان يبدو أنهم تطرقوا لأكثر من حديث وكانت الفتاة تستعرض أفكارها الغربية بفخر كأنها ترتدى أوفر الثياب، وترتاد أفخم القصور وبالطبع كانت الشابة منبهرة بشدة، فقد كان يبدو عليها أنها متشربة العادات الغربية كإسفنجة واسعة المسام، كانت ترتدى تيشيرتا أسود وبنطلونا جينزا وكوفية، وجاكيئا قصيرا أسود، خلعته قبل أن تجلس ووضعت شنطتها الهافان الكبيرة على الأرض، ووضعت ساقا على ساق، لتناول العشاء، كان يبدو عليها أنها مثقفة، كانت تجيد اللغة الإنجليزية بطلاقة كانت متعلمة جيدا ولكنها منبهرة بصورة تعميها من أن تجالس أناسا لا تعلم عنهم أمرا سوى أنهم أجانب، وفجأة لاحظت امرأة من المجموعة تفحصنى لهم فوجهت لى نظرة عنيفة فاندسست بوجهى فيما أمامى من أطباق، وكان القلق على وجه الفتاة واضحا منذ البداية برغم محاولاتها أن تبدو تلقائية، وبدأت تنفض شعرها إلى الورا وتتنفس الصعداء وتلفتت حولها مرة أو مرتين، كانت تريد أن تغادر، ولكنها لم تستطع، بالطبع لم يكن هناك سلاح يهددها، ساورنى القلق بشأنها وظللت أتابع عن كثب، ولكنها كانت محاصرة فلقد كانت واحدة وكانوا مجموعة، وكان هناك مجاملات يجب أن تمارسها لتغادر بهدوء كتناولها الطعام وابتسامتها المتكلفة التى ابتسمتها حينما استأذنت منهم

للذهاب إلى الحمام، الذى ما أن ذهبت إليه حتى رأيت عيونهم تلاحقها، فضلا عن شخص آخر لحق بها، تأكدت حينها أنها بأزمة حقيقية وأن شكوكى تلمس شيئا حقيقيا، حينها تركت طاولتى، ولحقت بها، ولا أدرى لماذا فعلت ذلك؟ لعله بالبداية كان نوعا من الفضول، ولكن فيما بعد كان إحساسى بالعطف عليها، ما الذى حاصرها هذا الحصار؟ لقد كانت محاصرة وخائفة ووحيدة، ولعل عدم استطاعتى لمقابلة الوفد وجلسى ببهو الفندق لأرى هذه الوجوه، كانت مشيئة الله عز وجل.

آخر الممر

وفتحت باب دورة المياه وما أن فتحته حتى وجدتها تلتفت بذعر، كأنها خائفة من أحد ما، وأكملت بتوتر كتابة رسالة كانت تكتبها، فقلت لها: هل تحتاجين مساعدة؟ فقالت: شكرا لك، فاستدركت: عفوا هناك أحد ما يتبعك، من الممكن أن تحدثنى أمن الفندق، فأومأت بيدها، كانت تكتب بسرعة كأنها تسرق اللحظات، وقبل أن تخرج قالت: ممكن أن تتصلى بتلك النمرة، وسكتت لحظة وكأنها تفكر بأمر ما ثم قالت: وأعطه هذه الرسالة ولا تقرئى الرسالة، وإن لم يأت فانس أمرها، شكرا، لم أكن أدرك فى تلك اللحظة أنها كانت حريصة ألا أتورط معها بالأمر، ولم أكن أدرك أنها على هذا النحو من الأخلاق الأصيلة والمسؤولية، وغادرت مسرعة! كان يبدو أنها تعلم أن هناك أمرا ما سيحدث لها، وفتحت دورة المياه ورأيتها تسيير ونفس الشخص يسيير وراءها حتى اختفت عن ناظرى، حينها نظرت إلى النمرة والرسالة بقلق وشعرت بمسؤولية كبيرة، وظللت

واقفة أنظر إلى المجهول الذى ينتظر فى نهاية المر، وعلمت أنى دخلت مغارة أجهل ما بها، وفعلت كما فعلت الفتاة، وشعرت أن قصتها تشرف على الانتهاء وقصتى تشرف على الابتداء، وبدأت السير بطريق الفتاة. ووصلت البهو فلم أجدها ولم أجد المجموعة، تلفت حولى، فلطمت بيدي الهواء وشعرت بالذنب والندم بشدة لترددى باللحاق بها، الذى دعانى لأخبر الموظف الذى اعتادت عيناه على رؤية أكثر المشاهد السلبية دون رد فعل، ولو بالغضب فى نفسه، بل تشوهت نفسه مما رآه فأصبح يغضب ممن ينتقد الأفعال السلبية وينظر لهم بنفور، فسألته عن الفتاة والمجموعة فأخبرنى أنهم قد خرجوا الآن من الفندق، فقلت له إن الفتاة طلبت المساعدة، هل له أن يستوقفهم بأى حجة أو أن يبلغ الأمن؟ فنظر لى متعجبا، قلت له إنها متورطة بأمر ما واستجديته قائلة له: لن تندم على تدخلك فرد على بعصبية: إن هذا الأمر ليس تخصصه، وإن كان لديها مشكلة كانت ستطلبها دون واسطة منى، وأضاف باستهتار: دول خواجات فى بعض، قلت له إنها مصرية، فأجابنى: ليس هذا من مسؤولياتى يافندم وقبل أن أكمل حديثى همت السيارة بالتحرك فنظرت حولى فلم أجد أحدا من الحضور سيفهمنى، البعض أجنب والبعض عربى والغالبية أتى للتسلية، فذهبت مسرعة للحاق بهم، وركبت تاكسيا كان واقفا بجوار الفندق وطلبت منه أن يلحق بالسيارة، كان يوما باردا والضباب يعمى الأبصار ولكن التاكسى لحقهم برغم سرعة السيارة، ما أتعجب منه هى حالة الوقاحة التى كانوا يملون بها فقد كانوا يتصرفون بحرية وبلا خوف، كأن لديهم حصانة، فبدأت السيارة

تبطئ السير وحينها بدأ الخوف يتسرب إلى نفسى ، وفى تلك اللحظة قال لى السائق إنهم يستدرجوننا إلى حارات جانبية، وسألنى من هؤلاء؟ ولماذا تتبعينهم؟ فشعرت كأننى أتصرف بتهور، وشعرت بالخوف ، وكانت أول مرة بحياتى أشعر بهذا القدر من الخوف ، فطلب منى التوقف فوافقته وطلبت منه الرجوع إلى الفندق ، وبينما كانت العربة ترتد عائدة سمعنا على إثرها صرخة مدوية للفتاة ، خرجت على إثرها أنا والسائق من السيارة، وذهبنا فلم نجد لهم أثرا، وعدنا أدرأجنا، كان لى شعور قوى بأن هناك أمرا ما خطيرا سيلحق بالفتاة أو أن يكون لى حق بها وانتهى الأمر، وأشار لى السائق بالصعود بسرعة للسيارة فصعدت ودون أن ينتظر أمرى غادر مسرعا، وجلست متخشبة، وكان السائق بتلك اللحظة يتحدث كثيرا، وحينما نزلت عند الفندق قال لى : أنصحك لا تهتمى بالأمر وكأنك لم تر أو تسمعى شيئا، ونحن حقا لم نر شيئا، أليس كذلك؟

فبادرته القول ولم نسمع شيئا؟ وتركته مغادرة، كنت أعلم أنه لا يريد أن يورط نفسه بأمر كهذا ولم يكن معنا دليل، ولم يكن معى سوى رسالة وإحساس وصرخة قوية، ونظرت للرسالة التى بين يدى.

الرسالة

وجلست أقلب الرسالة بين يدى ، حتى اتخذت قرارى وفتحت الرسالة، كأننى أفتتح عالما مخيفا، وأنا أتذكر عبارتها لا تفتحى الرسالة، ففتحتها وكانت مختصرة بها بضع سطور كتبها ليقرأها

شخص ما وكنت أنت الشخص الموجه له الرسالة: إننى أشك أنهم علموا بالأمر ولا أدرى ما أفعل والأوراق أخفيها بحجرة استأجرتها بالأمس، والعنوان... واتصلت بك وأخبرتني أنك ستأتى بالطائرة من القاهرة، ولم أفهم شيئا سوى الشعور بالخوف، الذى خرج مع أنفاس الفتاة وسكن بين أنفاسى.

ونظرت نحوه: ولم أجد سواك والرسالة فاتصلت بك. فسرحت عيناه الواسعتان بعيدا كمركب شراعى يغادر من شاطئ إلى مياه البحر متذكرا ذلك اليوم، وأكمل قائلا وطرت إلى الفندق وأمسكت بقلبى من بين براثن الذعر، لعلى ألحق بها أو ألحق بالقدر وجبت المدينة ذهابا وإيابا أبحث عنها. فأكملت نهى قائلة وأخذت الرسالة، وقمت باتصالاتك، ولكن كانت اتصالاتهم أقوى.

فأكمل بحزن: لقد كنت ضابطا بالشرطة وتعرفت إليها عن طريق بعض الأصدقاء وصارحتنى بشكوكها عن هذه المجموعة، كانت تظن أننى أستطيع حمايتها، ظنت بى القوة وما كنت سوى شاب ضعيف أمام كيان خائن قوى، وتراكم ضعفى على ضعفها فلم يزد لها قوة بل زادها ضعفا، وطلبت منها أن تنتظر، وانتظرت وانتظرت حتى أضحت الشكوك حقيقة، وفرحنا، وحين أوشك الأمر على الانتهاء انتهينا. فردت عليه، وقد لمست منه حبا للفتاة منذ لقائهما الأول: لقد أعجبت بها منذ اللحظة الأولى حينما أتت إلى مكتبك، فتاة مثقفة جميلة أنيقة عاشت بالدول الغربية أكثر من بلدها.

فأجابها: ولكنها نشأت فى أسرة حافظت على أخلاقها الشرقية، كانت تتعامل بصدق.. بسبب عفووية، متأثرة بنجاح وعملية المجتمع الغربى، ودون إدراك لما حولها، حاولت أن تغير واقعا مؤلما نعيشه هنا ففوجئت بأمر أشد خطورة، فكان عقابها القتل، كان انتهاؤها لوطنها وأصالتها قويا، برغم مظهرها الغربى! واستطرد قائلا إن بها شبيها منك كلا منكما لديه إعجاب بالثقافة الغربية ولكنكما لديكما تمسك قوى بجذوركما ومبادئكما مهما ابتعدتم.

فقال: ولهذا ظلت تذكرنى؟

فرد عليها: لا. فإن كانت تشبهك فى جانب فإن بينكما اختلافات كثيرة، كما أننى غيرت كثيرا عن تلك الأيام، لقد أصابنى الشيب ومازلت شابا بعد ما رأيت من فساد، فرغم ما كان لدى قد يغتر به الكثير لكننى لم أوقفهم بل أوقفتهم أنت وما بك من ضعف.

— فقلت: واخفت منذ ذلك اليوم.

وأنهوا أمرها بأسلوبهم المعتاد تشويه صورة أعدائهم قبل أن يتخلصوا منهم، وقبل أن يقتلوا، قتلوا سمعتها، وأضاعوا شرفها، وما أسهل التشهير بسمة امرأة بالمجتمعات الشرقية، وصوروا الأمر بأنها فتاة غربية ذات أصول مصرية، متحررة، قتلت على يد أحد المدمنين وهى تتعاطى المخدر، بعد أن صوروها وهى تتمايل من تأثير المخدر وألقيت على طرف الطريق قتيلة، واستخدموا صحفهم لترويج كذبتهم، وسقطت من عينيه دمة حارة وهو يقول ولم يعرف سرها سوى وسواك.

وإن لم تأت في ذلك اليوم، لم يكن سيعرف أحد الحقيقة... يا لها من صدفة.

فردت عليه قائلة: إنه قدر.

فقال: قدرنا أم قدرهم؟

فقلت: لقد اجتمعنا جميعا من أماكن مختلفة ولأغراض مختلفة حتى ينتهي هذا الكابوس، البداية كانت عندكما والنهاية عندي. وأكمل وجاءت الضربات في ذلك الوقت متلاحقة ومرتبة وكأنهم كانوا يعلمون بكل مخططاتنا وكانت تحركاتهم أسرع من توقعاتنا وبلا مقدمات صدر أمر بإغلاق التحقيق الأصلي، ومنع النشر عن الموضوع، ولم يعد هناك شهود ولا تحقيق ولا أدلة، وتغير موقعي من محقق إلى متهم، وعدنا إلى نقطة البداية، أو عدت وحدي دونها إلى نقطة البداية.

بروتوكولات

وجلست وهي تكمل: وعدت إلى الفندق وبعدها بساعة كنت أمامي مخفيا نصف وجهك، وأخذت مني الرسالة ونصحتني بأن أخذ حذري، ونمت ليلتها وأنا خائفة، وباليوم التالي استيقظت على رنة التليفون، وكانت من الوفد الأجنبي، وتم تحديد الميعاد بال مساء، وبين الصباح والمساء انتظرت اتصالك، ولم تتصل ولكنك أتيت قبل لقائي بالوفد بساعة بجانب الفندق وكنت خائفا حزينا وأخبرتني وأنت مخفي نصف وجهك أيضا أنها وجدت قتيلة على أطراف المدينة، وسألتني عن الأوراق فأعطيتك إياها، وغادرت وجلست متخشبة منتظرة الوفد الأجنبي فإذا

هي نفس الجماعة، ذات المرأة التي تحدثت مع الفتاة بالأمس والرجل ذى اللحية وآخر صاحب الوجه البسيط، وفتاة رقيقة الملامح لم أرها من قبل، وما أن رأيتهم حتى ألجمتني الصدمة، ووقفت متجهمة وابتسمت المرأة الأجنبية وكأنها تقول لقد تعرفنا من قبل. وبينما كان الجميع مبتسما تعرفنا بهدوء، ونظر موظف الاستقبال متعجبا بأن من حاربتهم بالأمس جالستهم اليوم وعلى ذات الطاولة، وظننت أنني أغرقهم بينما كنت أنا من يغرق، واستمر الحديث عن الشركة وحاولت المرأة أن تبدو لطيفة معي فسألتني بلباقة ماذا أحب أن أشرب فطلبت كوبا من النسكافيه، وبينما كانت تتحدث كنت أفكر ماذا أفعل؟ أستخير الله بصمت في قلبي، وظللت شاردة حزينة مقتضبة إلى أن انتهى الحوار الذى انتهى بتسليم دبلوماسى، ونظرة تحد من جانبي ونظرة تساؤل مخيف من جانب المرأة الأجنبية، وخلفتهم ورائي وخرجت وأنا متجهمة من باب الفندق الذى ما أن خرجت منه حتى أخذت أجرى وأجرى بالحديقة الشاسعة حول الفندق، حتى أوقفنى الإرهاق ونظرت بعينى الحمراوين إلى المالا نهائية للبحر أمامي، ومسحت على رأسي وأنا ألاحق أنفاسي، وأخذت على نفسي عهدا ألا أدعهم حتى أكشف أمرهم.

اللقاء الثاني مع المجموعة

نظرت إلى المرأة التى من الواضح أنها تتحكم فى المكان نظرة قلقة منى مخيفة، حينما تحدثت عن الفتاة ومما يبدو أن الخوف والتوتر بدا على وجهي، فتدخل الشاب ذو الملامح البسيطة متحدثا بتأهب باد

على وجهه برغم محاولته أن يبدو تلقائيا صريحا، وقف لسانى فجأة عن الحديث وغير الرجل البسيط الحوار بطريقة بهلوانية دعونا نتحدث عما جننا من أجله، ولن أكذب عليك فلم أسمع شيئا من الحوار الذى استمر لربع الساعة، كنت مطرقة الرأس أتذكر تلك الفتاة وكيف أنها كانت مفعمة بالحياة والنشاط، وفجأة أفيق حينما يسألاننى أين أنت فأخبرهم: معكم، كان يبدو أن تلك المرأة كانت كالقائد وسط مجموعة من العسكريين متخوفة بشدة وقلقة منى وكانت صاحبة نظرات مخيفة تهددننى بكل ما بها من قوة، بينما كان يبدو على الرجل ذى الملامح العادية أنه خائف، وظلت عيون ثلاثتنا تتناقل الأفكار والتنبؤات عما سيفعله كل منا، بينما تابعنا باقى المجموعة، وأنهت تلك المرأة الحديث بتحديد الميعاد القادم وسرت وقدمائى ثقيلتان كأن بهما ثقيلين ونفسى عليها أحمال، كان شعورى بالمسؤولية من ناحية وشعورى بالتخاذل من ناحية أخرى يقتلنى، ماذا فعلت تلك الفتاة ليكون لها تلك النهاية المفجعة؟ إنى أشعر بما حدث لها إننى لا أعرفها، ولكننى شعرت بأنها كانت ضعيفة، خائفة، وأمسكت برأسى وأنا أنظر من الشرفة، إنهم يستغلون نقاط الضعف جيدا، يبحثون عنها ويدرسون كل أسبابها والظروف التى حولنا ومن ثم يستغلونها لتدميرنا، ماذا يريدون منى؟ وماذا يريدون منها؟ وماذا يريدون من هذا المجتمع؟ لا أدرى ماذا أفعل، ولكننى - بالطبع - لى فعل يجب أن أفعله مثل الفتاة، وصليت الاستخارة وتوجهت إلى رب العالمين، ماذا أفعل؟ كنت خائفة، ولم أتم ليلتها وظللت منكشمة على سريرى حتى طلع النهار فغلبنى النوم.

المستنق

(هذا المشروع منبثق عنه ريبورتاجات على المنطقة... صور... أفلام فيديو تشوه صورة مصر... معرفة تفاصيل حياة هؤلاء الناس،... نقطة ضعف كبيرة).

وفى اليوم التالى التقيت بشخصيتين فقط من الوفد، وكانت تلك المرأة وذلك الشاب، وقابلتنى المرأة بترحاب المنتصر، بعد أن تأكدت من اتخاذى خيار السلام، وتحديث بود و رقة كمرحلة ثانية للوصول للخضوع التام دائماً، فاستخدمت التهديد ثم الترحيب، وكنت سلبية تماما ألقى ولا ألقى، لم أفهم ماذا أفعل، أعطتنى أكثر من ورقة كدعاية للمؤسسة، التى يمثلونها، والتى لها أكثر من فرع بدول العالم مهمتها حل مشاكل العشوائيات، الأطفال المشردين والنهوض بدول العالم الثالث، ولهذا فإنها مستعدة لدعم شركتنا التى ستقدم بدورها دراسات ميدانية عن بعض المناطق العشوائية، وعن الأطفال المشردين، وسيتعاون معنا فى هذا الأمر مؤسسة... البحثية، وهذا المشروع سيكون دعاية جيدة للشركة فضلا عن أن المؤسسة ستقوم على شرف هذا المشروع بإنشاء مؤسسة للأطفال المشردين، تلجم لسانى أمام تلك المعونة وشعرت بمشكلة ولكننى لم أفهمها، ورددت بدورى إننى سأخبر الشركة، وسلمت على السيدة بتحفظ ولكنى لا أدرى لم أطل بوجه المرأة الريبة من جديد؟ وعدت إلى القاهرة ولم أتطرق إلى تلك القصة إلا فى إطار الأسرة، فلم يكن هناك من سيصدق ما سأرويه وكنت أعلم أنه ليس لدى دليل، وعدت إلى الشركة وقدمت العرض ولم أكن متحمسة وعارضته لكن لم يكن هذا الأمر

من صلاحياتي، وبدأنا بتنفيذ المشروع، وكان الأمر مؤثرا بشدة، إنهم بشر يعيشون حياة لا نتوقعها، إنهم يحتاجون أى يد تقدم لهم العون ولو كانت يد تخنقهم، وكان عملهم منظما جادا مبهرًا يدعوك للعمل معهم وإن كنت نافرا منهم، يدعوك للعمل وإن كنت عاجزا، يدعوك للعمل وإن كنت مرتابا، إنهم يعطونك الحلم وإن كان زائفا، فإنك تلمس أمورا لم تكن لتلمسها وإن عملت فى طوفان العمل الوجدوى بمصر وفى موجة العمل المتع نسيت كل ما كان، وأخذت تتذكر أياما ظنت أنها قد نسيتها، إننى أتذكر جيدا.

لحظات تجمعنا وتبادل النكات والضحكات عملنا الجماعى المتع، إنهم أناس يعلمون جيدا ما هو الهدف وكيفية تحقيقه، وكيف يجعلون كل امرئ أن يعطى أفضل ما لديه، عمل منظم، ليس مرهقا، إنجازات متحققة، تشجيع، تقدير، مناخ شيك، مناخ يجذب أصحاب النفوس الضعيفة، اجتماعات منظمة، حوارات مفتوحة دون تكلف بين الرئيس والمرؤوسين، تجعل كل مشارك بالمشروع مشاركا بالقرار، كان كحلم جماعى يمكن تحقيقه.

فقال ساخرا: حلم تحويل مكان بائس إلى مكان إنسانى، إنهم يروضون البشر.

فقلت بأسف: نعم، لا أنكر إننى سعدت بوهم النجاح، وعلى الرغم من إننى استمررت معهم لمحاولتى أن أمسك الدليل فإننى مع الأيام بدأت تغيب صورة الفتاة من مخيلتى واحتل عقلى ما ألسه بيدى، وبدأت أدرج كل ما حدث بشرم الشيخ بأنه وساوس وأوهام، وحينما

أثبتت تلك المرأة على عملي قائلة لي لقد توقعت منك تلك الروح الإيجابية. شعرت بالتقدير، إنهم أناس يقدرون من يعمل معهم، ومرة الأيام وأنا أحمل الدوسيهات المحملة بمعلومات دقيقة عن أحوال هؤلاء الناس، إنها معلومات قد تبدو بسيطة كبساطة أصحابها، ولكنها كانت خطيرة كخطورة المعلومات العسكرية، لم أكن أعلم أنا أو المجموعة ما أهمية الأمر أو ما خلفيته ولكننا استخدمنا كآلات بشرية تنفذ وإن احتجنا يوماً لتفسير ما يحدث فالأسباب الإنسانية كثيرة! .
إنني أذكر البريق الذي كان بعين تلك المرأة التي كانت كالصقر وسط غابة كثيفة الأشجار، ونظرت إليه قائلة: كنا نحمل بأيدينا رفات وعورات شعبنا، أستطيع أن أقول لك لقد كنت أنتظر مثلما انتظرت، فكنت شاهدة على الخيانة وشاركت وكان هناك الكثيرون من الخونة من الشباب المحترم المثقف والشابات التي قد يكون الكثيرات منهن ملتزمات ومحجبات فلم تكن جارانس تظهر حساسية تجاه الالتزام الديني فلم يكن لديها مشكلة أن تصلى ولكن مشكلتها أن تمنع صلاتك من تنفيذ أوامرها!

وكان العمل - وللأسف - بتصريح من أمن دولتنا، وكان لكل من المجموعة قسطه من الخيانة، المعظم باختيار السلبية لتغطيته، والبعض بحجة أنه لا يوجد شيء يستطيع أن يوقفهم، وإن كانت الدولة تستطيع إيقافهم لكانت أوقفهم، إنهم يعملون بتراخيص، ويعملون بالنهار، وبالظاهر ولم يوجد شيء نستطيع من خلاله أن ننتقدهم فلقد استخدموا الشعارات الإنسانية كغطاء لهم كالمنظمات الماسونية.

وأتى يوم انتهاء المشروع، إننى أتذكر ذلك اليوم، كنت أسير من مكان قريب، وهم ينظرون بانبهار لحجر أساس المشروع وحضور عدد من المسؤولين، وحضور وسائل الإعلام العربية والغربية، إنه إنجاز مهول، تحويل حى من عشوائى إلى إنسانى، يا له من إنجاز، انبهر كل من بالمكان، إنهم أناس يساعدوننا، إنهم غير ملزمين بما يقدمونه إلينا، وبدأ يتحدث أهل المنطقة الشعبيون، يتحدثون عن الإنجاز وكيف تحولت المنطقة البشعة إلى منطقة آدمية، وبخطوات بسيطة تحول المسار إلى مهزلة بكل المقاييس، وفجأة وجدتهم بعد أن سرقوا ما سرقوه، سرقوا مجدنا وتاريخنا، مقابل معونة وهمية ندفع ثمنها مقدما، ووقفت مبهوتة بما صنعناه بأيدينا، إنهم يشوهوننا، إننا حشرات وهم الأيدى البيضاء، وتحول الحوار من تحدث عن إنجاز إلى نقد للحكومة إلى نقد لأنفسنا وفجأة أصبحت الأرض أرضهم وبدأنا ننزوى فى أماكننا، وبدأنا نسخر أمامهم من أنفسنا، وألبسنا ثياب العار وفجأة نظرت إلى وجه تلك المرأة فرأيت بوجهها ابتسامة لن أنساها، ابتسامة ساخرة شامته، ابتسامة انتصار، ابتسامة لها أكثر من مغزى.

وغادر الجميع وبقيت مجموعة من أشكال ووجوه وأصول مختلفة بمجرد اجتماعهم تشعر بالريبة، كنت واحدة منها.

ولكن ما حدث تلك الليلة جعلنى رغما عنى متيقظة، متوجسة منهم خيفة، وجعلنى أبحث عن الكثير منهم، وعلمت مؤخرا بأنه يوجد الكثير من الصهاينة معنا بالمشروع، حاملين جنسيات مزدوجة، وتحت قيادة منظمة تحمل شعارا إنسانيا يضم العديد من دول العالم وبالطبع

من ضمنها إسرائيل، والعجيب كانت هناك معلومات كثيرة عنهم وعن صلتهم بالكيان الصهيوني على الإنترنت، والتي ما أن عرفتھا... وسكتت وظهر عليها الألم وهي تتذكر هذا اليوم الذي تحاشاها فيها الجميع حين صرخت في وجوههم إنكم خونة؛ أنتم تعلمون جيدا مع من تعملون، إنكم مجرد عبيد على أرضكم، وبعدها خرجت مسرعة حزينة، ترتعش كل أوصالها بعد أن ابتعد من ابتعد باستحياء، ومن اقترب اقترب وهو يتلفت.

(الترويض)

فى هذا الوقت لم يكن أحد يتوقع ما سيحدث وإن تحدثت إما ستتهم بالخيال الواسع أو ستتهم بالجنون، فكما أن كل منا داخله الشك الذى يحركه، فداخله الجبن الذى قد يوقفه، وبأى لحظة يقتل أى منهما الآخر. وبالنهاية سيطر على اليقين ومع تتبعى للمجموعة تبين لى أن جرائس تتناوب على بعض المناطق العشوائية والتي وصل تعدادها إلى ١١٢٨ منطقة عشوائية، مع بعثات متعددة لذوى جنسيات مزدوجة، للحصول على أكبر قدر من المعلومات، خاصة المناطق العشوائية التي تربي بها اليهود طالبة من المجموعة كل البيانات والوثائق فيما يخص المنطقة، وكالعبيد كانت المجموعة المصرية المثقفة المنقادة تعطيهم كل ما يطلبون دون سؤال، وتم اختراق تلك المناطق والتي تعد كقنبلة موقوتة لمصر لما يعانى سكانها من فقر وبطالة ومرض، فأرادوا أن يمسكوا بفتيلها، لما تمثله من بؤرة للجريمة بكل أنواعها من بلطجة، وأعمال

شغب، وتجارة أعضاء ودعارة، فقاموا بتوطيد صلتهم بالعديد من البلطجية، لينفذوا ما يرغبون، كما جندوا العديد من الشباب، الذين قاموا بتسفيرهم إلى إسرائيل، واستقدموا عصابات فى صورة باحثين وصحفيين ليقوموا بأبحاث عن سرقة الأعضاء، فضلا عن نقل آثار مصرية إلى إسرائيل، والقيام بالتقاط الصور وسرقة مخطوطات فرعونية، وطلب تقارير ووثائق خاصة بالمناطق العشوائية التى كان يقطنها اليهود، وبمساعدة الساسة اليهود بالخارج تم تنفيذ ما يخدم مصالحهم بمصر، واخترقوا الكثير من المواقع وتدخلوا فى كل شىء فأفقدوه قيمته، السينما والصناعة، والصحافة، وذهبت إلى المحكمة كما تعلم وأعطيتهم كل ما معى من مستندات وخرجت وأنا أشعر بنشوة الانتصار، وكأن حملا مثقلا بالأعباء نفذ منى وبعدها تم اعتقالى كما تعلم.

وقال: إن المشروع لم يكن يعمر البلد ولكنه كان يشوهها، والبناء الذى شيدته الجمعية لم يكن ذا قيمة والجمعية أعطتنا خسارة أكثر من مكسب، واستطرد وهو ينظر إلى عينيها اللتين تنظران بحسرة لإحدى ضفاف النيل البعيدة اليوم والقريبة بالأمس وأكمل: وهذا الشكل الذى تقمصتیه لا يضاهى شكلك الحقيقى و... سكت.

فأكملت ولم يكن سامر حبا، أليس هذا ما أردت قوله، وتركت الطاولة وهى تنظر بعيدا تجاه الشاطئ البعيد الذى كانت تنقف عليه مع سامر، وسألته: لماذا لم تأت لمقابلتى بعد خروجى مباشرة من السجن لقد كنت فى احتياج إليك، فأجابها: لعلى كنت خائفا أن أتسبب فى توتر أو أن أؤذيك أكثر بقربى، فنظرت له بامتنان وهى مبتسمة قائلة: لم ولن تكون

يوما مصدرا لأذيتي، لقد كنت دوما ملاكى الحارس، فابتسم وسألها: هل هذا يعنى أنك نسيت الماضى فأجابت بصوت منخفض وكأنها تحدث نفسها لقد كانت أياما حزينة أكثر منها سعيدة، وأردفت وهى تنظر إليه لقد كنت أمسك به حتى لا أغرق فى الأحزان، فسبب لى حزنا أعمق، لقد نما وهم حبه بين جدران سجن كنت فيه أتلهى عما يصيبنى بحبه، وحينما خرجت تبدد حبه فى معترك الحياة وتبدل الحب كما تدبل بسرعة الوردة البلدى الحمراء حينما تهملها، إن من أحببته لم يكن هو، كان عمرا أردت استعادته، اشترت الفشل والمرض والعجز وتسولت ما ليس لى، وهربت من ذاتى ونفسى فتهت وضللت وقصصت شعرى وأصاب المرض عينى وارتديت التى شيرت والجينز حتى تاهت منى نفسى، وأغضبت ربي لأرضى من حولى، لم يرضوا وضلت عنى نفسى كالكثير غيرى وسط ظلمات أضواء الزى الغربى، لم نختاره وإنما اختاروه لنا... إنه شىء من منظومة تبعية لم تأسرنى وحدى بل أسرت سامرا وأسرت جيلى بأكمله. لقد كنت مستقلة وأصبحت تابعة، اتبعت الغربيين فى ملبسهم وطريقة معيشتهم واعتقدت أننى مستقلة عنهم، إننى فعلت مثل تلك الفتاة، وفعلنا جميعا مثل العرب الذين رفضوا احتلال الغرب لهم بالأمس، وقبلوا اليوم أن يحتلوا عقولهم وخيالهم.

إنه أمر كالموت الذى نخاف أن نواجهه ولكنه حقيقة، فحقيقة اعتقالى، حقيقة شكلى، وحقيقة ظروفى، وحقيقة حبى المنهار أمور عديدة هربت منها، كما نهرب كلنا من الحقيقة، ونتخفى فى ثوب الوهم، فى ثوب الدنيا، حتى تأتى اللحظة التى ينخلع عنا ثوب الوهم،

ونودع تلك الدنيا التي طالما قلقلنا بشأنها وتصغر في أعيننا لأول مرة،
في آخر لحظة... لحظة الوداع أقسى اللحظات ولكنها الحقيقة. وبعد
أن تخبطت وكنت على مشارف أن أكون بلا كيان أو شخصية قابلت
نفسى ، فهل أهرب منها؟
واهتزت أوراق الشجر وتحركت مياه النيل وسارت معها العصافير
فى طريقها لتستقر بين أحضان الأشجار.

بداية النهاية

وتعجبت للتناغم الذى بدا بينهما واضحا ، كيف تصارحه هكذا؟ ،
وكيف قصت له كل ما أخفته عن سامر بل عن نفسها وظلت تتذكر
حوارهما الذى كان أشبه بتناغم الآلات الموسيقية ، بانسياب المياه بنهر
النيل ، إنها لم تحتج أن تتجمل أمامه أو أن تتنكر لذاتها ، بل عرضتها
بكل فخر وراحة ، واهتزت أوراق الشجر وتحركت مياه النيل وسارت
بجوار النيل الذى تحركت مياهه وحلقت فوقه العصافير عائدة لتستقر بين
أحضان الشجر بهدوء ، وعادت إلى منزلها بهدوء وسعادة وفتحت النافذة
التي أغلقتها منذ فترة وهى تتذكر باب الزنزانة وهو ينفتح ، إنها لم تعد
ذكرى مؤلمة ، إنه اختبار اجتازته وأصلحها. وابتسمت بارتياح لقد أبرئت.

* * *

المساء

ولم تنم ليلتها وأخذت تقص ما حدث بحماس وسعادة لوالدتها، وما أن تنهى القصة حتى تبتدئها، ووالدتها تضحك وهي تقول: الحمد لله ربنا عوضك، دى نصره قوية من الله، وأخذتا تحلان ما حدث مرارا وتكرارا حتى ردت عليها والدتها حماسها بحماس قائلة وهي تطير من السعادة: خلاص نامى مش حتقدرى تقومى بكرة، فتجيبها نهى وهي تتقلب وواضعة إصبعها فى فمها كالأطفال فى دلال: أنا لن أنام الليلة، وما أن غفيت والدتها حتى أيقظتها قائلة: ماما لا تنسى أن توقظينى باكرا، فترد والدتها فى هدوء: فى عيد المشمش إن شاء الله.

اليوم التالى

وأيقظتها والدتها فجرا وبعد أن صلت كانت تريد أن تنام بشدة ولكنها تغلبت على النوم بشرب كوب من النسكافيه الذى أخذت تشربه وهي تتطلع لوالدتها وهي ترتشف الشاي، وأخذت تسألها ماذا تفعل حين تراه، فقالت لها: لا تفعلى شيئا، انتظرى ماذا سيفعل، وارتدت أشيك ثيابها وسألت أمها فقالت لها لقد رآك فى أحلك الأوقات لن يفرق شىء. وذهبت للعمل وانتظرت أن يأتى ليحادثها ولكنه لم يأت ومريوم العمل وهي سارحة حزينة وبينما كانت هكذا دخل البارتنر فأتى أكثر من زميل ليحادثه، وعندها علمت أنه أتى ليحادثها فحُفِق قلبها بشدة، ونظرت فيما أمامها من أوراق وأشار لمن اقترب منهم

بالتوقف الآن وتوجه إليها، وما أن أتى ليحادثها حتى انتفضت واقفة
تلملم أوراقها وهي تقول: إننى كنت سأغادر الآن.

فقال لها: لقد كنت أرقبك منذ بداية اليوم.

فقالت بغضب: مما يبدو أنك أدمنت المراقبة.

فأجابها بابتسامة كاشفة لها: ولكن اليوم مراقبتك مختلفة.

— لماذا؟ هل أحببت أن ترانى وأنا مخدولة ثانية.

— لا ولكنى أحببت أن أعرف إن كنت تحبيننى.

— وهل اطمأننت؟

فأجاب بثقة: جدا.

فقالت بتعجب آه وصمتت.

وقطع الصمت وهو مبتسم: هل من الممكن أن توصلينى إلى منزلك

فسألته وهي تبتسم: لماذا؟ فأخذ نفسا عميقا وهو مخفض الرأس وينظر

فى عينيها بابتسامة مداعبة:

لمقابلة والدتك

فردت بسخرية: ألا تعرف الطريق؟!

فابتسم بلؤم: لم أذهب إلى هناك.

يوم زفافها

وامتلاً المنزل بالأنوار ودخلت الفرحة المنزل الحزين، ونظرت إلى

المرأة براحة متقبلة شكلها، وارتدت فوق رأسها الحجاب وأخيرا عرف

وجه أمها الراححة وهي تنظر نحو ابنتها بسعادة، وتغير من تغيروا معها

بالأمس ، وأصبح الجميع منبهرا بها وابتسمت ساخرة حينما رأَت الحشد حولها هو الحشد نفسه الذى كان بزفاف سامر وتذكرت الحشد حول المرأة الأجنبية فأطرقت برأسها سارحة فقاطعها مازن قائلا: خلاص! فرفعت رأسها إليه قائلة: خلاص!

وركبا مع والدتها السيارة السوداء والتي تطلع إليها سامر وتذكرها حينما كانت قلقة منها وتخبره عنها وقال لها لا تخافى وأنا بجوارك ، لم يكن يعلم أنه من سيؤذيها وأن من بها من سيحتويها واليوم أصبح بعيدا وأصبح الآخر منها قريبا وأخذ يتطلع إليها من بعيد ، كأنها النجمة التي لم يكن مقدرا له أن يمسكها ، ولم ينظر إلى ابتسامتها أو عينيها كما فعلت ، إنما نظر إلى أنوار السيارات الفارحة ومن قبلها بريق اللؤلؤ بفستانها وعلى رأسها.

* * *

الفهرس

٣	إهداء
٥	مقدمة
٦	شعرك القصير وعينك الغائرتان
١٦	اللغز
١٩	دنيا
٢٣	رضا الله - الصراع
٢٥	وانفض العزاء
٢٦	الحجرة الفارغة
٢٧	خوف وهروب (حقيقة.. وموت)
٢٩	النهاية
٣٠	الطيب
٣٢	العقد الخانق
٣٦	التبعية
٣٧	يوم جديد
٣٩	وانغلق الزنزانة
٤١	المرآة
٤٢	الابتسامة
٤٣	الزنزانة
٤٤	وأغلق قصبان النافذة
٤٥	على الشاطئ

٤٦	البنيان الهش
٤٧	العبودية للبشر
٤٩	التحرير
٥٢	السلسال
٥٣	الفتاة الأخرى
٥٤	وجوه
٥٦	آخر المر
٥٨	الرسالة
٦١	بروتوكولات
٦٢	اللقاء الثاني مع المجموعة
٦٤	المستنقع
٦٨	الترويض
٧١	بداية النهاية
٧٢	المساء - اليوم التالي
٧٣	يوم زفافها